الباب السابع

الحياة الروحية فى خراسان

فى القرنين الأول والثانى الهجريين

الفصل الأول

سمات الحياة الروحية فى خراسان

كانت القادسية – كما نعلم – الحادثة الكبرى الحاسمة فى سقوط دولة فارس القديمة ، واندفع العرب – وهم يحملون رسالة الإسلام – فى عهد عمر بن الخطاب إلى ما عرف – فيما بعد – باسم عجم العراق – وافتتحوه . . . واختطوا المدن فيه . ونحن نعلم أن من أهم هذه المدن الجديدة والتى بنيت على آثار مدن قديمة « المدائن » . وقد أتى المدائن الصحابى القديم سلمان الفارسى ، وحذيفة بن اليمان . ومن ثم أصبحت المدائن موطناً كبيراً لحركات روحية فى الإسلام ، صدر البعض منها عن التشيع عامة ، والتشيع الغالى على وجه الخصوص . أما عن تشيع المدائن وزميلتها قم – فظاهر من إقامة سلمان وحذيفة وهما من أركان الشيعة فيها . ثم نرى أيضاً أن عبد الله بن سبأ فى بعض الأقوال قد نفى إليها ، ثم نزلت فيها أيضاً قبيلة عبد قيس الشيعية ، وهى القبيلة التى احتضنت التشيع الغالى .

ثم صارت المدائن موطناً للإسحاقية أتباع إسحق بن محمد النخعى الأحمر وكان لإسحاق كتاب فى « التوحيد » ذهب فيه إلى قداسة على . . . وقد انتشر الكتاب فى المدائن فى أوساط الشيعة الغالية ثم كانت المدائن موطن الحارثية . وهى الفرقة التى التف حولها عبد الله بن معاوية بن جعفر (المتوفى ١٣٠هـ) . وكانت أيضاً من فرق الشيعة الغلاة . وقد خرجت من هذه الفرقة فكرة « النور » أى أن الله نور ، وأن هذا النور فى عبد الله بن معاوية ، كما ابتدعت أيضاً أفكار التناسخ والأظلة الدور . كذلك ظهرت فى المدائن فرقة الذمية ، وهى فرقة تفضل عليا على النبى ﷺ . .

أود من هذا أن أقول إنه كانت فى المدائن حركات روحية شيعية . . . كما كان فى زميلاتها قم واصطخر . وقد شاركت الحركات الشيعية بلا شك فى إقامة الحياة الروحية فى الجزء الجنوبى من عجم العراق . لكن هل شارك غير الشيعة من المسلمين فى هذه الحياة . لقد ظهر فى المدائن عابد ، بل زاهد من أكبر زهاد المسلمين هو شعيب بن حرب (توفى عام ١٩٧ هـ) وقد تتلمذ شعيب على سفيان الثورى وغيره من كبار المحدثين ، ثم نزل المدائن واعتزل بها ويقول ابن الجوزى : كان أحد المفردين بالزهد

---

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ١٩٦ – ١٩٨ .

والتعبد[١] . أما الذهبى فيوثقه كمحدث فيقول : شعيب بن حرب المدائنى ، فوثقوه[٢] » . وقد اعتزل شعيب بالمدائن . . . وأقبل عليه الزهاد يأخذن عنه . وقد ذهبت إليه جماعة من تلامذته من العباد إلى المدائن – فرأوه – وكان جلداً وعظماً . . . ويعيش فى كوخ بناه بيده وخبز له معلق بشرط ومطهرة . . . يأخذ كل ليلة رغيفاً يبله فى المطهرة ويأكله . . . ونظر إليهم وقال : أترى هاهنا بعد لحماً والله لأعملن فى ذوبانه . . . حتى أدخل القبر ، وأنا عظام أتقعقع ، أريد أتسمن للدود والحيات . . . » . وقد سمع أحمد بن حنبل بهذا فقال : « شعيب بن حرب حمل على نفسه فى الورع . . . » ، بل إنه يقول لعبد الله بن خبيق الزاهد الأنطاكى : « أكلت فى عشرة أيام أكلة ، وشربت شربة » . فقد اتخذ الجوع أيضاً سنة له . . . كما كان يتخذ الوحدة قاعدة له ، بحيث سأل أحد أصدقائه – وقد جاءه إلى مكة حيث استقر آخر الأمر « ما جاء بك » فقال الرجل « حيث أؤنسك » فقال : جئت تؤنسنى ، وأنا أعالج الوحدة منذ أربعين سنة ، وهو ينصح الحسن بن صالح الزاهد الكوفى الزيدى – وقد تتلمذ عليه الحسن أيضاً « لا تجلس إلا مع أحد رجلين ، رجل جلست إليه يعلمك خيراً ، فتقبل منه ، أو رجل تعلمه خيراً ، فيقبل منك ، والثالث اهرب منه . والإسلام خير جليس ، بل إن دخلت القبر ومعك الإسلام ، فأبشر – » وفيما يروى عنه أحمد بن أبى الحوارى ، وقد صحبه أيضاً وأخذ عنه . . . أنه كان يرى أن آفة الدنيا الرياسة « من طلب الرياسة ، ناطحته الكباش . ومن رضى أن يكون ذنباً ، أبى الله إلا أن يجعله رأساً » وأراد للناس الكسب الحلال ، وأن يكسبوا عيشهم فى طاعة الله ، ولذلك يذكره السرى بن المغلس السقطى الصوفى البغدادى فيقول : « أربعة كانوا فى الدنيا ، أعملوا أنفسهم فى طلب الحلال ، ولم يدخلوا أجوافهم إلا الحلال ، وهيب ابن الورد ، وشعيب بن حرب ، ويوسف بن أسباط وسليمان الخواص » كما ذكر حوادثه أيضاً بشر ابن الحارث الحافى . . .

وانتهى الأمر بشعيب بن حرب إلى مكة ، وهى سنة اتخذها بعض الزهاد كأمثال الفضل بن عياض ، كما سنرى بعد ، وكرهها البعض الآخر – كسفيان الثورى .

وفى مكة عاش فقيراً . . . وكان يمشى فى طرقاتها « وعليه جبة صوف رقيقة نظيفة . . . وهو حاف » وهو يبكى حتى تسيل دموعه على لحيته[٣] .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن فى الجزء الجنوبى من فارس ، كان هناك التشيع العادى ، والتشيع

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢ .

(٢) الذهبى : ميزان ج ٢ ص ١٧٦ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٣ ص ٢ – ٤ .

الغالى ، كما كان هناك التسنن . . . وكان الجميع يقيمون حياة روحية إسلامية . . .

ولكن ماذا كان يحدث فى خراسان . وقد كانت بعيدة عن البصرة . وعن الكوفة ، كما كانت أشد بعداً عن المدينة ، وعن دمشق وعن غيرها من العواصم الإسلامية الكبرى .

يذكر يا قوت خراسان فيقول « بلاد واسعة : بلاد واسعة حدودها مما يلى العراق ازاذوار قصبة جوين وبيهق . وآخر حدودها ما يلى الهند – طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان . وليس ذلك منها ، إنما هو أطراف حدودها . وتشتمل على أمهات من البلاد – منها نيسابور وهراة ومرو . وهى كانت قصبتها ، وبلخ وطالقان ونيسا وأبيورد وسرخس – وما يتخلل ذلك من المدن التى دون نهر جيحون – ومن الناس من يدخل أعمال خوارزم فيها ، وبعد ما وراء النهر منها وليس الأمر كذلك [1] . ولكنا نرى أبا الحسن النيسابورى يقرر أن مدينة « بخارى من جملة مدن خراسان ، ولو أن نهر جيحون يقع بينهما » [2]

فهناك إذن اختلاف فى التحديد الجغرافى لخراسان . غير أننا نفضل أن نقول مع الدكتور كامل الشيبى – إن خراسان هى المنطقة التى تستغرق مجموع مدن بلخ ونيسابور ومروالروزوبيرود ونسا . وهى المنطقة التى تقع فى الشمال الشرق من إيران الحالية . وكان سكانها من الفرس وبعض الأتراك . وسنرى أن عبد الله بن المبارك عالم خراسان الكبير وزاهدها كان « تركيا » . وقد قاومت خراسان الفتح العربى أشد مقاومة ، ولم تفتح إلا فى عهد عثمان صلحا عام (٣٠ هـ) . ولكنها عادت إلى الثورة ، ولم تستقر أمورها فى عهد الأمويين . وقاوم أهلها العرب أشد المقاومة . ولم يعتنقوا الإسلام بسهولة ، بل كانوا يعلنون الإسلام ، ثم يرتدون ، . . . وأخيراً استقر الإسلام فيهم ، وأخذت الأديان القديمة المنتشرة هناك تتحطم يوماً بعد يوم . . . وكانت أهم هذه الأديان القديمة – أديان الفرس المتعددة – الزرادشتيةوالمانوية والديصانية والمرقونية والمزدكية . وستفرخ هذه المزدكية فراخاً هائلاً فى القرن الثانى الهجرى . . . أحياناً باسم الخرمية ، وأحياناً أخرى باسم الراوندية أو فرق من الراوندية وبخاصة الأبى مسلمية ، وانتشرت بيوت النار ، وبيوت النار هذه كانت عنواناً على هذه الأديان الفارسية الثانوية ، كما انتشرت أيضاً أديان الهنود ، من برهمية وبوذية . . . [3] فانتشرت بيوت الأصنام . لست أود أن أعرض لهذه الأديان المختلفة – وقد تكلمت عنها بالتفصيل فى الجزأين الأول والثانى من نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام . ولقد قضى الإسلام على الجزء الأكبر من هذه الأديان ، ولكن بقيت

---

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٧ ص ٣٥٠ .

(٢) أبو بكر محمد بن جعفر النرشخى : تاريخ بخارى . . . ص ٢٧ .

(٣) النرشخى : تاريخ بخارى : المقدمة ص ٩ .

منها جيوب خطيرة مختفية أطلت برأسها أحياناً : وأنزلت بالإسلام والمسلمين أفدح الأضرار .

ولقد كثرت الأحاديث الموضوعة عن أهمية خراسان . وقد وضع الوضاعون هذه الأحاديث – رواية عن سلمان . ومن أهمها « بالمشرق بقعة يقال لها خراسان . وثلاث مدن خراسان وهذه تزين يوم القيامة بالياقوت والمرجان ، ويصعد منها نور ، ويكون حول هذه المدن ملائكة كثيرة تسبح وتحمد وتكبر . ويؤتى بهذه المدن إلى العرصات ، بالعز والدلال كالعروس التى تزف إلى بيت زوجها . ويكون لكل مدينة من هذه المدن ، سبعون ألف علم ، وتحت كل علم سبعون ألف شهيد ، وبشفاعة كل شهيد ينجو سبعون ألف موحد من المتكلمين بالفارسية ، وبكل ناحية من هذه المدن عن اليمين واليسار ، ومن الأمام والخلف ، طريق طولها عشرة أيام ، كلها يوم القيامة شهداء [1] . والحديث الآخر « خراسان كنانة الله إذا غضب على أحد رما هم بها » وحديث آخر « ما خرجت من خراسان راية فى جاهلية وإسلام ، فردت ، حتى تبلغ منتهاها . . . » وكانت كلها أحاديث موضوعة من دعاة العباسيين – انتظاراً للزحف الخراسانى العباسى . وقد وضعت الأحاديث المتعددة عن خروج العباسيين منها . . . والرايات السود . . . والمهدى . . . وكل هذا من خراسان . وقد انتشرت هذه الأحاديث فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى . وقد كانت أقدم حركة سرية فى الإسلام ، وهى حركة أبى هاشم بن محمد بن الحنفية فى خراسان . . . وحين أعلن خداش « ارتداده عن الإسلام – باسم الإمام العباسى ، سرعان ما صدقه أتباع بنى العباس . . . ولكن الإمام العباسى سرعان ما أعلن غضبه على خداش ، وقتل خداش وانتهى أمره . . .

لم يكن من السهولة إذن بمكان تحويل الخراسانيين إلى الإسلام ، لقد دافعوا – كما رأى مختلف الباحثين – عن أديانهم القديمة ، كما دافعوا عن قوميتهم الفارسية ، واندفع ترك التتار من أهل المنطقة فى نفس تيار الفارسيين . كان هذا كله فى زمن المقاومة – وهذا شىء طبيعى – ولكن حين تحولت المجموعة إلى الإسلام ، هل بقى فى المجموعة الإسلامية الجديدة أوضار من أديانهم القديمة أو هل كان لهم تعبير معين عن مقاومة إيجابية أو سلبية تجاه الدين الجديد . ذهب براون المستشرق الإنجليزى المشهور إلى أن « التشيع والتصوف كانا من الأسلحة التى حارب بها الفرس العرب للقضاء عليهم » ونحن نعلم أن براون كان مستشرقاً سياسيًّا ينفذ سياسة إنجليزية أو صليبية معلومة كان غايتها القضاء على الروح الإسلامية فى إيران ، وفصلها سياسيًّا عن المجموعة العربية ، وكان ضالعاً مع حركة البابية للقضاء على المذهب الاثنى عشرى نفسه . ولكن نجد أن بعض الباحثين الإيرانيين المعاصرين يذهبون إلى نفس الأمر ، وليس الأمر كذلك على الإطلاق [2] .

---

(١) النرشخى : تاريخ بخارى : ص ٣٩ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٤٧ – ٣٤٩ .

إن الروح الإسلامية قد استقرت فى خراسان استقرارها النهائى فى المجموعة الكبرى من أهلها فى أوائل القرن الثانى . حقًّا . لقد تأثرت الحياة الروحية والعقلية الإسلامية فى مدن خراسان بمن غيرها من المدن الإسلامية ، والسبب فى هذا أنها لم تعاصر – كما قلنا الخلفاء الراشدين ، وهى على دين الإسلام ، فلم يرحل إليها صحابى كبير – ينشئ فيها تقاليد معينة . وقد لاحظت هذا فى الموصل من قبل . ولكن حين تمكن الإسلام فى قلوب الفرس عامة ، والخراسانيين خاصة ، ظهر على المسرح الإسلام العقلى والنقلى والروحى الموالى الكبار – وهم الذين أنشأوا فلسفةالإسلام الحقيقية .كان هناك المعتزلة – فلاسفة الإسلام على الحقيقة ، ومعظمهم من الفرس . وكان عملهم الأول الكبير – صوغ الإسلام فلسفيًّا تجاه فلسفات الأديان الأخرى ، وبخاصة المجوس – المانوية والمزدكية وغيرهما – ثم كان الكبار من أهل السنة والجماعة – وكانوا فلاسفة الإسلام الحقيقيين صاغوه فى أكمل الصور – وهم أيضاً فرس – الباقلانى – والغزالى والرازى . . . إلخ . ثم ظهر علماء النقل وعلماء الفقه . أبو حنيفة والبخارى . . . وهم أيضاً فرس . أما علماء الروح فكان الحسن البصرى وهو سيد القوم – فارسيًّا . ثم يأتى التشيع – وقد انتشر أولا لدى المغاربة – وأقصد بالمغاربة هنا غرب خراسان – كانت الكوفة موطنه ، وكانت المدينة . وقام التشيع أولاً على يد عرب ، ثم شارك فيه العرب والعجم – فى الكوفة – وكان فى الكوفة المختارية – عربية – والكيسانية فارسية . كان الشعور الإسلامى واحداً – فى الاثنين ، فاتفقوا واختلفوا فرساً وعرباً كمسلمين – لا كطوائف تنتمى إلى جنسيات مختلفة . . . أما أنه كانت هناك جيوب خفية ، حافظت على فارسيتها ، وضغنت على الإسلام أشد الضغن ، فلا شك فى هذا ، ولكن هذه الجيوب كانت لدى العرب أيضاً ، حتى قضى عليها . ولقد وجد عبد الله بن مسعود بقايا دين مسيلمة فى الكوفة . كما ستوجد هذه الطوائف فى كل مكان وفى كل زمان .

. . . ثم إننا حين نؤرخ للحركة الروحية فى خراسان ، نجد نفس الظاهرة التى وجدناها فى الموصل من قبل ، وهى أن خراسان بدأت بدراسة الحديث ، وظهر منهم محدثون من أكبر محدثى الإسلام من أمثال عبد الله بن المبارك وإسحق بن راهوية (٢٣٨) ، ويحيى بن يحيى (٢٢٦) بل سيكون الحديث سمة مؤكدة للزهاد . وللزهاد المتجهين نحو التصوف من أمثال الفضل بن عياض وإبراهيم بن أدهم . وكان الحديث – عاصماً للزهاد – إلى أكبر حد – من انزلاقهم نحو الأفكار غير الإسلامية . ثم نجد أيضاً فى خراسان – الزهد الصوفى يظهر مباشرة ، فلم تعان خراسان الزهد الإسلامى البسيط الأول . وقد لاحظ هذا بحق الدكتور كامل الشيبى[1] . والسبب واضح ، أن الإسلام لم يستقر فى خراسان اللهم إلا فى أواخر القرن الأول ، وكان الزهد الإسلامى البسيط قد انتهى أمره ، وحل محله الزهد

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ١ ص ٣٥١ .

الصوفى ، ومع هذا نستطيع أن نجد فى حياة بعض المحدثين من أهل خراسان آثاراً وبقية من هذا الزهد الإسلامى البسيط . ومن الأمثلة على هذا يحيى بن يحيى وإسحق بن راهويه وغيرهما .

غير أننا نجد فى خراسان وفى فارس عامة — فكرة السياحة لدى الزهاد أكثر منها فى بلد آخر من بلاد الإسلام . وإنى على يقين من أن المستشرقين الأوربيين الحاقدين على الإسلام — سرعان ما يتلقفون مثل هذه الفكرة ، ويحاولون ردها إلى مصدر أجنبى ، وبخاصة المصدر الهندى . وسيضعونها فى موازاة السائح الهندى العارى . والأمر أبسط من هذا بكثير . إن مصدر السياحة دعوة قرآنية — وقد ذكر القرآن التائبين والعابدين والسالحين والركع السجود . . . إلخ . ثم إن أول السالحين فى الإسلام لم يكونوا زهاداً ، بل كانوا محدثين ، تفتيشاً وراء الحديث ، وتحرياً لموطنه ولصحة رواته . وقد فعلها سفيان الثورى أولاً ، ثم قام بها البخارى — صاحب الصحيح وهو خراسانى — على نطاق واسع ، وكان أول سائح فى النظرية الإسلامية الدينية — الفارسى القديم — سلمان وكان اتجاه سلمان — كما نعلم — من أصبهان إلى أرض الغرب ، حيث مهجر النبى الجديد ، وإشراقة الوحى الأخير . . . وكان لا بد للسائحين الفرس أن يختطوا نفس الطريق . . . وقد قام بأول سياحة له من أرض العجم ، ومن أصفهان بالذات ، بلد سلمان ، سائح أصبهانى هو محمد بن يوسف بن معدان الأصبهانى (المتوفى سنة ١٨٤ هـ) حقًّا — لم يكن محمد بن يوسف بن معدان خراسانيًّا ، ولكنه أتى من أصبهان ، البلد الفارسى القديم ، وكان مثالاً لصوفية خراسان جميعاً بحيث كان عبد الله بن المبارك يدعوه «بعروس الزهاد»[1] وقد نشأ محمد بن يوسف الأصبهانى فى أسرة غنية فى خراسان ، وأخذ فى تعلم الفقه والحديث ثم زهد فى كل هذا . . . فدفن كتبه . — وهو يقول « هب أنك قاض ، فكان ماذا . هب أنك مفتى — فكان ماذا ، هب أنك محدث فكان ماذا » ثم تخلى عن أملاكه . وأخذ فى التعبد ، ثم بدأ سياحاته ، إلى عبدان ، والمصيصة ، ومكة ، وكان على صلات بالفضيل بن عياض بل يقال إن الفضيل هو الذى كان ينفق عليه[2] . وقد كان على صلات أيضاً بعبد الله بن المبارك . وكان ابن المبارك يسعى لمقابلته يقول أبو طالب المكى « وكان محمد بن يوسف الأصفهانى عالماً زاهداً . . . ومن الناس من كان يفضله على الثورى رحمهما الله تعالى — إلا أنه كان يؤثر الخمول ، فلم يكن يعرفه إلا العلماء ، وكان من حسن رعايته وشدة يقظته ، يعمل فى كل وقت أفضل ما يقدر عليه فى ذلك الوقت . فلما طلبه ابن المبارك بالمصيصة قال له بعض من يعرف حاله : إن ذاك لا يكون فى المصر إلا فى أفضل موضع فيه . . . قال : فهو إذن فى الجامع فطلبه ، فقيل له : إنه لا يقعد إلا فى أفضل

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ٦٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٢٥ .

مكان . . . قال فطلبه عند الفقراء ، فإذا هو دس رأسه وأخمل نفسه مع المساكين . فكان عنده أن أفضل وطن فى المصر الجامع ، لأنه يقال : إن الصلاة فيه بخمسين صلاة أو أفضل الأماكن موضع الفقراء من الجامع ، وأن أفضل الأحوال الخمول ، فلذلك أخمل نفسه – فيما بين الفقراء فى الجوامع ليحوز فواضل الأعمال[1] ويبدو أنه كان يرحل فى مجموعة من أصحابه إذ يقول أبو نعيم « كان محمد ابن يوسف وأصحابه إذا استراحوا قاموا إلى الصلاة [2] » وقد نتساءل من هم أصحابه . ويبدو أنه صحب أبا إسحق الفزارى ومخلد بن الحسين . أو بمعنى أدق كان محمد بن يونس من حلقة تتصل بإبراهيم بن أدهم . صدروا جميعاً – بعد سياحتهم – عن البصرة – ثم نزلوا الثغور – وقد مات هؤلاء جميعاً قبله . فكان يقول « ذهب فلان . . . وفلان وبقيت أنا أتردى فى حشوش هذه الدنيا » .

كانت السياحة – منذ خرج من أصفهان دأب محمد بن يوسف ، يمضى على السواحل – حتى مكة ، ثم يعود إما إلى المصيصة وإما إلى عبدان . وكان يعيش فى درجة من الصمت . . . وكان مثله الأكبر « سفيان الثورى » فلما ذكر له رجل « متنطع » أو مبتدع قال « هلك المتنطعون . . . علم هذا ما جهل سفيان الثورى علمه ، علم هذا ما جهل مكحول علمه . . . علم هذا ما جهل سليمان بن موسى علمه . . . فالرجل إذن سائح وزاهد ، يعيش فى مقام الصمت ، ولكن على طريقة الثورى تماماً . وكما كره سفيان الثورى لبس الصوف كرهه هو أيضاً ، فكان يلبس « القطن » وحين نهى هو سفيان الثورى عن التحديث ، امتنع وقال « نهانى محمد بن يوسف » كان للرجل إذن مقام كبير لدى المحدثين الزهاد ، فكان عبد الله بن المبارك « كالعاشق له » وكان سفيان يأتمر بأمره . وأخيراً . . . نرى أحمد ابن حنبل يذكره فيقول « . . . هذا الرجل الذى يكثر ذكره . . . علماً وفضلاً » .

كانت لمحات محمد بن يوسف فى كراهية الدنيا تقترب من التصوف فكان يصرخ « الدنيا غنيمة الله . . . أو الهلكة ، والآخرة عفو الله . أو النار . ويردد :

ومر بدار المترفين وقل لهم ألا أين أرباب المدائن والقرى
ومر بدار العابدين وقل لهم ألا قطع الموت التنصب والأذى

وكم كره الدنيا « لقد خاب من كان حظه من الله الدنيا » ويردد « خذ من دنياك القوت الذى لابد لك منه ، وبادر القوت ، واستعد للموت . . . » ويطلب . . . قتل الأمل والإغراق فى العمل . . . فلم يكن ينام شتاءاً ولا صيفاً . وكره التجارة ونهى أخاه عنها .

---

(١) أبو طالب المكى : قوت ج ١ ص ٥٣٩ – ٥٤٠ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٢٧ .
(٣) المصدر السابق : ج ٨ ص ٢٢٩ .

ويقول لتاجر يبيع فى الحرم « انظر . أن لا يراك الله ، وأنت تخدع الناس فى حرمه فيمقتك » . . . وأخيراً . . . إنه من أحباء الله ، كره الناس ولقاءهم لحبه . فقال « من أحب الله ، أحب أن لا يعرفه أحد [1] » .

تلك صورة موجزة لحياة الرجل أثرت فى معاصريه كما أثرت فيمن بعده غير أن تأثيرها الكبير إنما يتضح فى زهاد خراسان المشهورين : عبد الله بن المبارك والفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم .

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٢٣٤ .

الفصل الثانى

البيئة الخراسانية والزهد

مدرسة عبد الله بن المبارك

لقد ذكرنا من قبل أن بيئة خراسان قبل الإسلام كانت بيئة فارسية بحتة – مع مجاورة للترك المنتشرين فى أطرافها – وأضيف هنا أيضاً أن الثقافة الصينية كانت أيضاً منتشرة فى تلك البلاد . . . وقد نبه الباحث العراق الممتاز الدكتور كامل الشيبى إلى وجود نساك فى الجيش الفارسى الذى قاوم الفتح الإسلامى . ونحن لا ننكر أبداً كل هذا ، ولا أنكر وجود الفلسفة اليونانية فى مركزها الكبير فى جند يسابور . . . كانت بيئة خراسان بيئة « الغنوص » الغنوص على أشد ما يكون الغنوص . كما أننا لا ننكر واقعة تاريخية هامة وهى : أن مجلس التعليم الإسكندرى – الطبى والفلسفى – انتقل إلى أنطاكية ثم منها إلى جنديسابور ومرو وحران – وبقى فى كل منها سنوات طويلة – قبل أن ينتقل إلى بغداد . . . ولابد أن يكون لكل هذا أثر فى الحياة العقلية والروحية والفقهية الإسلامية . ولكن حدث هذا فى الشام ، كما حدث فى البصرة وفى الكوفة . كان هناك من يمثل الروح الإسلامى الخالص وهناك من يمثل الاتجاهات الغنوصية والأجنبية – أو على الأقل من تأثر بها فالحسن البصرى وأبو حبيب العجمى – وهما فارسيان ، وفرقد السنجى – وهو أرمنى كانوا يمثلون الروح الإسلامية أصدق تمثيل ، بينما كان هناك من الفرس ومن العرب من يلغون فى الدنيا ويأخذون بروح الغنوص . ويتحينون الفرصة السانحة للانقضاض على الإسلام . وكان هؤلاء – غلاة الشيعة – فى البصرة وفى الكوفة ، بل فى المدينة نفسها . أما خراسان ، فلم تظهر فيها الآراء الناشزة – وكما لاحظ ياقوت – فى معجم البلدان إلا متأخراً . . . حين جاءها رسل العباسيين ، فأثاروا كوا من الغنوص فيها . ولقد ظهر من البدء فى خراسان مجموعة من المحدثين والمفسرين – كان البعض منهم يمثل الإسلام أدق تمثيل . من أمثال مقاتل بن حيان (توفى عام ١٥٠ هـ) – و« أبو بسطام النبطى البلخى الخراسانى – كما يدعوه الذهبى . . . أحد الأعلام » . وكان عابداً كبير القدر . . . صاحب سنة وصدق . . . هرب أيام أبى مسلم الخراسانى إلى كابل ، ودعا خلقاً إلى الإسلام ، فأسلموا [1] . والبعض الآخر – كمقاتل بن سليمان البلخى (١٥٠ هـ)

(١) الذهبى : ميزان ج ٤ ص ١٧١ / ١٧٢ .

كان يمثل فى تفسيره – الإسلام – المتأثر بعوامل خارجية ، فأدخل التجسيم فى قلب التفسير ، ووضع الأحاديث المجسمة التى انتشرت فى العالم الإسلامى[١] .

وأعقب هؤلاء محدثون خلص من أمثال إبراهيم بن طهمان (توفى عام ١٦٣) وأبو عبيد قاسم بن سلام (توفى عام ٢٢٣ هـ) ويحيى بن يحيى النيسابورى (توفى عام ٢٢٦) وإسحق بن راهويه (توفى عام ٢٣٨ هـ) ومحمد بن رافع بن أبى يزيد أبو عبد الله النيسابورى القشيرى (توفى عام ٢٤٥ هـ) ومحمد ابن أسلم أبو الحسن الطوسى (٢٢٦ هـ) وقد مثل هؤلاء – بجانب عنايتهم بالفقه والحديث – الزهد الإسلامى البسيط أو ما سمى فى هذا العهد « بالورع » بل كان محمد بن أسلم من البكائين .

فلم تكن خراسان إذن بدعاً بين البلاد والمناطق العربية الأخرى . سادها – ولو متأخراً – كل العوامل التى مرت بغيرها من المناطق . وقد يقال : لقد كان فيها النساك الفرس الأقدمون ، من أتباع زرادشت ومانى ومزدك . . . كما كانت قريبة من الهند ومدخلاً لها . . . ولكن كان أيضاً فى الكوفة وفى البصرة مختلف الثقافات ، وكذلك كان فى الشام ، وفى مصر ، ولكن كان فى خراسان ، كما كان فى كل البلاد الأخرى حياة روحية إسلامية ، صدرت عن الإسلام وحده .

وأول المصطفين – فيما يقول مؤرخهم ابن الجوزى . . . هو أبو القاسم الضحاك بن مزاحم الهلالى (المتوفى عام ١٠٥ هـ) وكان من أهل الكوفة ، ولكنه وفد إلى بلخ ، وقد حمل من الكوفة ، كما حمل من أختها البصرة « البكاء . . . فكان إذا أمسى بكى . فقيل له : ما يبكيك . فيقول لا أدرى ما صعد اليوم من عملى[٢].

انتقل البكاء إذن فى أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى إلى خراسان فالكوفة والبصرة كانتا هى المصدر لأول الحياة الروحية . وسنرى – فيما بعد – أن عبد الله بن المبارك وإبراهيم بن أدهم يأخذان طريقهما أو رحلتهما الأولى إلى عباد البصرة ، حيث يلتمسان منهم وفيهم حياة الروح . . .

ولكن ما يلبث أن يظهر فى « بلخ » وستكون بلخ – من دون مدن خراسان – بلد العبادة الأول ، وسيخرج منها الرواد الأول للتصوف – أقول – ظهر خراسانى أصيل هو عطاء بن مسلم أو ابن أبى مسلم الخراسانى (المتوفى عام ١٣٥ هـ) وأعطى عطاء للخراسانيين فكرة قيام الليل . كان يحيى الليل كله صلاة ، فإذا ذهب من الليل ثلثه نادى – وهو فى فسطاطه صحابته « قوموا فتوضأوا وصلوا ، فإن قيام هذا الليل وصيام هذا النهار ، أيسر من شرب الصنديد ومقطعات الحديد ... الوحا ... الوحا ... النجا ... النجا ... ثم يقبل على صلاته . وكان يعظ أصحابه ... يقول « إنى لا أوصيكم

---

(١) الذهبى : ميزان ج ٤ ص ١٧٣/١٧٥ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

بدنياكم أنتم بها مستوصون ، وأنتم عليها حراص . وإنما أوصيكم بآخرتكم ، فخذوا من دار الفناء لدار البقاء ، واجعلوا الدنيا كشيء فارقتموه ، فوالله لتفارقونها ، واجعلوا الموت كشيء ذقتموه ، فوالله لتذوقنه ، واجعلوا الآخرة كشيء تركتموه ، فوالله لتزكيها وهي دار الناس كلهم ، ليس من الناس أحد يخرج لسفر ، إلا أخذ له أهبته ، فمن أخذ لسفره الذى يصلحه ، اغتبط ، ومن خرج إلى سفر لم يأخذ له أهبته ، ندم ، فإذا ضحى لم يجد ظلا ، وإذا ظمئ لم يجد ماء يتروى به ، وإنما سفر الدنيا منقطع ، وأكيس الناس من قام يتجهز لسفر لا ينقطع » وهو هنا يشير إلى السفر إلى الرحلة – رحلة الآخرة – وسنرى الزهاد من بعده – فى خراسان – يتخذون سنة السياحة أو الرحلة – فيخرجون من الدنيا كلها بلا زاد – أملاً فى سفر الآخرة الذى لا ينقطع . . .

وعطاء الخراسانى يقيم مجالس الذكر ؛ وقد رأيناه يدعو فى الليل – فيقول « مجالس الذكر . . . هى مجالس الحلال والحرام » كما يدعو إلى السجود . . . فى كل بقعة من بقاع الكون « ما من عبد يسجد لله سجدة فى بقعة من بقاع الأرض ، إلا شهدت له يوم القيامة ، وبكت عليه يوم يموت . . . وصلاة الأولين هى فيما بين المغرب والعشاء ، فإنها ساعة الغفلة[1] » .

وكان عطاء الخراسانى أول مثال حقيقى للزهد لأهل خراسان .

ولقد كانت « السياحة » إذن هى أولى سمات الزهد الخراسانى . وقد أعلنها عبد الله بن المبارك محدث خراسان الكبير حين قال « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان ، ونحن ستون فتى نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيرى[2] خرجوا جميعاً لطلب العلم ، وحدث عبد الله بن المبارك ، ثم تزهد ، وحدث إبراهيم بن أدهم أيضاً ثم تزهد – وسنرى الفضيل بن عياض فعل نفس الشيء أيضاً .

أما عبد الله بن المبارك (المتوفى عام ١٨١ هـ) فكانت أمه خوارزمية ، وأبوه تركى ، وكان أبوه عبداً لرجل من التجار من همذان من بنى حنظلة ، ولذلك دعى عبد الله بن المبارك بمولى بنى حنظلة . وإن هذا المولى الذى ولد – وأبوه عبداً لرجل من الرجال – أصبح فيما بعد محدث المشرق بل المشرق والمغرب ودعى بأمير المؤمنين الحقيق وإمام المسلمين . بل يذكر أن هارون زار الرقة . . . وحدث وقتها أن أقبل عبد الله بن المبارك من خراسان إلى البلدة نفسها ، فانجفل الناس خلف عبد الله بن المبارك ، وتقطعت النعال ، وارتفعت الغبرة ، وأشرفت زوجة هارون الرشيد من برج من قصر الخشب – فلما رأت الناس ، قالت : ما هذا – قالوا : عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له عبد الله بن المبارك . فقالت هذا والله – الملك – لا ملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوان[3] .

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٦٩ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١٢ ، والخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٦ .

وقد نتساءل : هل كان أخذ هذا العالم الخراسانى للحديث ومهارته فيه نوعاً أيضاً من المقاومة ضد العرب والإسلام . هل كان تميزه فى هذا العلم الإسلامى البحت أيضاً مقاومة سلبية ضد الإسلام ، كما يدعى براون ومن تابعه من الكتاب المسلمين وأنه كان لدى الفرس والترك وغيرهم من الأمم المغلوبة نزعة الثأر والانتقام من الإسلام ، فأخذوا التشيع كما اتخذوا التزهد طريقين سلبيين لمقاومة الإسلام . ولم يكن عبد الله بن المبارك سيد المحدثين فى عصره فقط ، بل كان أيضاً مرابطاً ومجاهداً حارب أبناء جنسه من غير المسلمين ، ورابط فى الثغور ، وكانت المرابطة والجهاد سنة العلماء الحقيقيين ، كما كانت سنة العباد والزهاد . وسنرى إبراهيم بن أدهم يفعل نفس الشيء ، فهل كان فى هذا مقاومة سلبية للإسلام ، أم فناء فى الإسلام واستهلاك فيه . كان هم براون الحقيقى ، هو أن يتصيد أى فكرة يحاول بها فصل الفرس المحدثين عن العرب ، فوضع فكرته عن مقاومة الفرس المسلمين الأوائل للمسلمين خلال التصوف والتشيع ، متوهماً له أسساً منهجية وصيغاً سيكلوجية ، ويقوم خلال هذا كله بانتحال تحليل وتركيب خداعين ، ودعوى سخيفة بأن الفرس عانوا الذل والاضطهاد تحت نير العرب المسلمين . وهانحن نرى عالماً خراسانياً تخضع له الجباه فى القرن الثانى من الهجرة .

ونحن لا نؤرخ هنا لمكانة عبد الله بن المبارك فى الحديث ، فقد أجمعت على هذه المكانة الكتب المختلفة ، ويذهب صاحب تاريخ بغداد إلى أن عبد الله بن المبارك كان من الربانيين فى العلم ، الموصوفين بالحفظ ، ومن المذكورين بالزهد[1] » . وذهب إلى هذا أيضاً جميع رجال طبقات المحدثين ولكننا نحاول أن نبين مشاركة هذا المحدث الكبير فى الحياة الروحية الإسلامية .

كان عبد الله بن المبارك رجلاً واسع الثراء ، وكان يتاجر حتى فى أثناء حجه . . . وقد عجب الفضيل بن عياض الزاهد الخراسانى المشهور ونزيل مكة من هذا . فسأل عبد الله بن المبارك : أنت تأمرنا بالزهد والتقلل والمبالغة وتزال تأتى بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام—كيف ذلك : فقال ابن المبارك : يا أبا على : إنما أفعل ذلك لأصون به وجهى ، وأكرم به عرضى ، وأستعين به على طاعة ربى ، لا أرى لله حقًّا إلا سارعت إليه ، حتى أقوم به . فقال له الفضيل : يا ابن المبارك ما أحسن ذا – إن تم ذا[2] » . بل إنه يقول مرة أخرى للفضيل بن عياض « لولاك وأصحابك ما اتجرت » ويقول الفضيل نفسه « وكان ينفق على الفقراء فى كل سنة مائة ألف درهم[3] » أما أخبار إنفاقه على الفقراء

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٠ ص ١٥٢ .

(٢) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٦٠ .

(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١٧ .

والزهاد ، فقد استفاضت بها كتب التاريخ .

وقد عاش الرجل فى مرو عيشة محدث ، يمتلئ داره الكبير بالوافدين ، ثم حين انتقل إلى الكوفة ، رأى العزلة ، واعتبرها العافية وأكثر الجلوس فى بيته ، فقيل له ألا تستوحش . قال : كيف أستوحش وأنا مع النبى ﷺ » . ومن ثم بدأ يدعو إلى الوحدة « البعد من كثير من الناس ، أقرب إلى الله ، وفر من الناس كفرارك من أسد » بل يدعو إلى الخمول وعدم الاشتهار « كن محبا للخمول ، كراهية الشهرة ، ولا تظهر من نفسك أنك تحب الخمول ، فإن دعواك الزهد من نفسك ، هو خروجك من الزهد ، لأنك تجر إلى نفسك الثناء والمدحة » . وهنا بدأت مرحلة الزهد فى حياة الرجل ، فأخذ يبكى « كان ابن المبارك إذا قرأ كتاب الرقاق ، فكأنه يقرر منكورة من البكاء لا يجترئ أحد منا أن يدنو منه أو يسأله عن شيء[1] – ودخل فى مرتبة الخوف – فكان يقول للفضيل أكثركم علماً ينبغى أن يكون أشدكم خوفاً » ... واستعد للموت ولما بعد الموت . ثم امتنع – كعادة الزاهد عن النوم ، كما كان صائم الدهر . وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ قال العلماء ، ومن الملوك ؟ قال الزهاد . ومن السفلة : قال : من يعيشون بدينهم [2] » .

ولم ير علماً إلا علم الزهاد وهو يقول : « قد جمعت العلماء فليس فيما جمعت أحب إلى من علم الفضيل بن عياض[3] »وكان يقول جمعنا العلم للدنيا ، فدلنا على ترك الدنيا « أى أنه أراد أن يتعلم الحديث والفقه لينشر ، فقاداه – بعد أن عرف الحقيقة إلى الزهد ، والخروج من الدنيا ، ورأى أنه لابد من مجاهدة النفس على سلوك طريق الزهد «إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا ، وإن أنفسنا لا تواتينا إلا على كره ، ينبغى أن نكرهها [4] » .

وأخيراً يعلن أن الغاية النهائية من الزهد هى المعرفة ، وقلما يصل إليها أهل الدنيا « أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها ... المعرفة بالله عز وجل[5] » . عزت إذن المعرفة المباشرة الحدسية ، تذوق الله بدون حديث وبدون فقه . وأخيراً ، نسيت له معجزة نبى . وهى رد الأبصار فقد دعى لأعمى ، فرد الله بصره[6] وبهذا دخل عبد الله بن المبارك فى قائمة الزهاد الكبار ، ولا عجب فى هذا ، فقد أحبه هؤلاء جميعاً : الفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبو إسحق

---

(١) نفس المصدر : ج ٤ ص ١١١ ، ١١٢ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٦٧ وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١١٥ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٦٨ .

(٤) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٢٨ .

(٥) نفس المصدر : ج ٤ ص ١١٤ .

(٦) نفس المصدر : ج ٢ ص ١٢٠ .

الفزارى وعلى بن بكار وأحمد بن أبى الحوارى كما أحبه المحدثون من الزهاد من أمثال الثورى . . . والمحدثون الورعون من أمثال الأوزاعى . كان عبد الله بن المبارك فريداً فى نوعه حقًّا ، وقد ترك آثاره الكبرى فى الحديث ، كما احتل مكانة لدى الزهاد . وقد كان أقرب الناس إليه فى مشربه هو الفضيل ابن عياض — وهو خراسانى أيضاً . ولكنه تميز عن عبد الله بن المبارك بأنه خاض الزهد خوضاً كاملاً — كما سنرى بعد وترك ثروة ضخمة أنمت الحياة الروحية الإسلامية أشد نماء .

الفصل الثالث

الفضيل بن عياض ومدرسته الزاهدة

١ – حياة الفضيل بن عياض :

إن الفضيل بن عياض (المتوفى عام ١٨٧) هو صورة روحية ضخمة مليئة . وقد اعتبره السلمى فى طبقات الصوفية : أول صوفية الإسلام على الإطلاق . ومع ما فى هذا من تجاوز ، فمازلنا فى القرن الثانى – قرن الزهد الضارب نحو التصوف ، غير أن الرجل يمثل تطوراً كبيراً نحو تحول الزهد إلى تصوف يبحث فى آفاق النفس الإنسانية ويضع مذاهب أخلاقية ونفسية ، ثم يرتقى شيئاً فشيئاً إلى مذهب فلسفى متكامل .

وقد اختلف الناس فى أصل الفضيل بن عياض : فبينما يذهب السلمى إلى أنه تميمى ، يربوعى ، خراسانى من ناحية مرو [١] « ويؤيده ابن الجوزى » وأنه أحد بنى يربوع ، يكنى أبا على ، ولد بخراسان بكورة أبيورد ، وقدم الكوفة ، وهو كبير فسمع بها الحديث ، ثم تعبد ، وانتقل إلى مكة فمات بها ، يذهب القشيرى إلى أنه «خراسانى من ناحية مرو [٢] » ويرى عبد الله بن محمد بن الحارث أن الفضيل بن عياض « بخارى الأصل » ويحسم الأمر ابنه عبيدة بن الفضيل بن عياض فيقول « أبى ، فضيل بن عياض بن مسعود بن بشر – يكنى بأبى على ، من بنى تميم ، من بنى يربوع ، من أنفسهم . ولد بسمرقند ، ونشأ بأبيورد ، والأصل من الكوفة » وكذلك يذهب إلى هذا خادمه إبراهيم بن الأشعث [٣] .

أود أن أصل من هذا إلى أن الرجل كان عربيًّا ، ولكنه عاش بأكورة حياته فى خراسان . . . فى بيئتها وجوها . وقد اختلف الباحثون قديماً وحديثاً حول المدرسة التى ينتمى إليها . فالبعض يعتبره من مدرسة خراسان – والبعض الآخر يعتبره من مدرسة مكة ، ويدرجه الدكتور كامل الشيبى فى مدرسة الكوفة ، غير أننى أرى أنه من مدرسة خراسان . وأن سماتها تنبثق فيه . ثم افتعلت قصة زهده .

---

(١) السلمى : طبقات ص ٨ .

(٢) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٧ .

(٣) السلمى : طبقات ص ٦ – ٨ .

وسيفعل هذا دائماً مؤرخو التصوف فى العالم الإسلامى ، يضعون دراما معينة للزاهد وللمتصوف المشهور ، يفتعلون فيها انحرافاً عن مجرى الحياة العادية للبشر. وقد سميت فى علم النفس الاجتماعى الحديث «المنحنى الشخصى لحياة ما» وقد حاول ماسينيون تطبيقها - بطريقة مضحكة على حياة الحلاج . . . وقد أراد ماسينيون أن يحقق بها نظرية دينية خاصة سيطرت عليه طوال حياته - وهى مسيحية الحلاج ، وأنه « مسيح حقيقى » فى العالم الإسلامى[1] وسنرى فى بحثنا عن الحلاج ، إلى أى حد تخبط ماسينيون وتسرع فى استنتاجاته وتطبيقاته . وحاول من قبل جولد تسيهر ، حتى بدون أن يعرف أصول نظرية المنحنى الشخصى لحياة ما ، أن يثبت بوذية إبراهيم بن أدهم ، ثم تابعه نيكلسون [2] . وسنرى سريعاً وفى هذا الجزء تهافت كلام كل من جولد تسيهر وتابعه نيكلسون .

أما هنا - فيما يخص الفضيل بن عياض - فقد افتعل مؤرخو التصوف - كما قلت - المنحنى الشخصى لحياة ما . . . هذه الدراما الانحرافية عن حياته العادية . أما هذه الحياة العادية ، الحياة التى كان يسير عليها - فهو أنه كان عياراً وشاطراً . . . وقاطع طريق ، يقول القشيرى « كان الفضيل شاطراً ، يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس ، وكان سبب توبته : أنه عشق جارية ، فبينما هو يرتقى الجدران إليها ، سمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله . فقال : يارب : قد آن ، فرجع . . . فآواه الليل إلى خربة ، فإذا فيها رفقة - أى جماعة - فقال بعضهم : نرتحل . وقال قوم : حتى نصبح . فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا ، فتاب الفضيل . وأمنهم وجاور الحرم حتى مات [3] . تلك هى القصة الأسطورية التى ذكرها كثيرون من مؤرخى الصوفية عن سبب تزهد الفضيل بن عياض . وقد كتبها الحريفيش بعد ذلك فى صورة أكثر أسطورية على لسان الفضيل نفسه وأطلق على لسانه أيضاً أشعاراً ينم نفسها على تأخرها [4] . ولقد تنبه الدكتور كامل الشيبى فى براعة نادرة إلى أسطورة قصة توبته فيرى أنها « هى التى تفضح أصله ، وهى أسطورة من جنس القصص التى تروى عن توبة الخراسانيين التى بعدها يبدأ زهدهم » - وبالرغم من أنه وضع الفضيل فى سياق مدرسة الكوفة ، يتنبه إلى أن التوبة « جديدة على الزهد الكوفى ، بل لم نجدها فى الكوفة ، ولم يشر إليها أحد ، لأن الجو مشبع بروحه [5] » فالمنحنى الشخصى والانحراف عن الحياة العادية ، سواء أكانت

---

(١) شخصيات قلقة فى الإسلام : المنحى الشخصى لحياة الحلاج ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٤٣ .

(٣) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) الحريفيش : الروض الفائق ص ١٥٢ .

(٥) الدكتور الشيبى : ج ١ ص ٣٠٠ .

هذه الحياة – حياة فرد عادى – من جمهرة المسلمين – أم حياة قاطع طريق لم تكن موجودة ، كما سنرى أنها لم توجد فى حياة إبراهيم بن أدهم ، وسنرى افتعال قصة بوذيته . . . إنها حكايات رويت لتدعيم طريق الزهد والتصوف ، ودعوة إلى التوبة . إن كانت ثمت ما نستطيع أن نستنتجه من هذه الأسطورة ، هى تنبه الأقدمين إلى الروح الخراسانية المبالغة فى الحساسية العاطفية – كما يقول كامل الشيبى .

ولد الفضيل بن عياض إذن فى سمرقند ، وقضى نشأته الأولى بأبيورد . . . وهناك تعلم الحديث ، ثم قام على عادة المحدثين بالرحلة أو كان لا بد أن يرحل إلى الكوفة موطن أجداده . فذهب إليها « وهو كبير» وسمع الحديث بها . وبهذا حقق تقاليد خراسان : الحديث والرحلة . وانتهى الأمر به إلى التعبد والتزهد . ولقد فعل هذا الكثير من قبل من زهاد الإسلام . وانتقل إلى الحرم وجاور هناك . . . ولم يكن أهل الكوفة يفعلون هذا . وكان سفيان الثورى المحدث والزاهد المشهور ينهى عن الإقامة فى مكة لغير الحج ، وذلك لأسباب نفسية وزهدية ، ولكن الشيخ الخراسانى ، أقبل إلى مكة ، وبها أقام وبها مات ، وكون حلقته الكبرى فيها ، بل أصبح – فيما يقول « الذهبى – مؤرخ الإسلام وناقد الرجال – « شيخ الحرم ، وأحد الأثبات » مجمع على ثقته وجلاله . بل إن الذهبى يهاجم من جرح الفضيل بن عياض وهو قطبة بن العلاء ولا عبرة بما رواه أحمد بن أبى خيثمة قال : سمعت قطبة بن العلاء يقول : تركت حديث فضيل بن عياض ، لأنه روى أحاديث أزرى فيها على عثمان رضى الله عنه . فمن قطبة ! وما قطبة حتى يجرح . وهو هالك . . . روى الفضيل رحمه الله ما سمع ، فكان ماذا ؟ فالفضيل من مشايخ الإسلام ، والسلام[1] . كان الفضيل بن عياض إذن (شيخ الحرم) والعدل الثقة الثبت ، أتى من خراسان إلى مكة ، فكان أكبر جوهرة فى تاريخها فى القرن الثانى الهجرى ، ودرة من جمال ، يتغنى فى أوديتها . وفى جبالها ، وفى مواطن الوحى فيها بالتوبة ، بالزهد فى الحياة ، بالبكاء ، بالخوف ، بالحب الإلهى . . . فى أنقى صورة . . . ثم بأوائل الفتوة .

٢ – مفهوم التوبة عند الفضيل بن عياض :

كانت توبة الفضيل بن عياض أو فكرة التوبة عنده ذائعة لدى الصوفية من بعده . ولعل هذه التوبة الصارمة هى التى خلقت أسطورة حياته الأولى ، حياة قاطع الطريق العيار . ولكن التوبة عند فضيل بن عياض إنما تعود إلى العاطفة الخراسانية الجياشة ، وقد كانت سمة الخراسانيين . فأتى إلى مكة ، إلى الحرم إلى أستار الكعبة ، ليتعلق بها ، رمزاً على توبة كل مسلم من ذنوبه وآثامه . أما هو فقد

(١) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٣٦١ .

أنى ليتوب عن الحياة كلها . وبقى فى مكة ، «شيخ الحرم» ليعلم المسلمين فى عصره ، وبعد عصره أسرار التوبة كلها .

وقد بدأ «شيخ الحرم» من فكرة التوبة الإسلامية التقليدية ، فنادى فى المسلمين فى الحرم : ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، إلا نادى الجليل جل جلاله ، من بطنان عرشه : أنا الجواد ومن مثلى أجود على الخلائق ، والخلائق بى عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم فى مضاجعهم كأنهم لم يعصونى ، وأتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا ، من بينى وبينهم . . . أجود بالفضل على العاصى ، وأتفضل على المسىء ، من ذا الذى دعانى ، فلم أسمع إليه ، ومن ذا الذى سألنى فلم أعطه ، من ذا الذى أناخ ببابى ونحيته ، أنا الفضل ومنى الفضل ، أنا الجود ومنى الجود ، أنا الكريم ومنى الكرم ، ومن كرمى أن أغفر للعاصى بعد المعاصى ، ومن كرمى أن أعطى التائب كأنه لم يعصنى ، فأين عنى تهرب الخلائق ، وأين عن بابى يتنحى العاصون . . . فيابؤس القانطين من رحمتى ، وياشقوة من عصانى وتعدى حدودى أين التائبون من أمة محمد ؟[1] والتوبة هنا فى البيت الحرام « فاحذروا تذكر الدينار والدرهم وأنت حول البيت ، إنما كان يأتيه التائب والمستجير » .

. . . فالتوبة إذن هى طريق العبادة ، وهى متصلة بالحزن ، بل « كل حزن يبلى إلا حزن التائب »[2] .

ولكن ما تلبث التوبة أن تأخذ معنى آخر عنده ، فتكون هى التوبة عن الدنيا كلها ، إننا موتى فما قيمة الحياة إذن . إنه ينظر إلى أهله فيقول « انظروا إلى وجوه موتى » ثم إننا ثكلى ، فعلام إذن نتزاحم على الطعام ، اللهم إلا ما يقيم الأود — وهو يقول عن نفسه لابن أخيه « إن الثكلى لا تجد طعم ما تأكل »[3] .

وتاب عن « الحديث » « وإنى لأسمع صوت أهل الحديث ، فيأخذنى البول فرقاً منهم » ويقول لهم وهو المحدث الثقة « لم تكرهونى على أمر تعلمون أنى كاره له ، لو أنى أعلم إذا دفعت ردائى هذا لكم ، ذهبتم عنى ، لدفعته إليكم »[4] ورأى الفضيل بعض المحدثين يضحكون ويمزحون فقال : مهلا — يا ورثة الأنبياء ، إنكم أئمة يقتدى بكم » . ويقول « لو أنك تطلب منى الدراهم ، كان أحب إلى من أن تطلب منى الأحاديث » ونهى الفضيل عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة عن التحدث بل إنه يأخذ بيد سفيان بن عيينة فيقول له « إن كنت تظن أنه بقى على وجه الأرض شر منى ومنك ، فبئس

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٣ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠١ .
(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٣ .
(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٤ / ٩٥ .

ما تظن »[١] . ويقول لشعيب بن حرب وهو يطوف بالبيت « لو شفع فى وفيك أهل السماء ، كنا اهلا أن لايشفع منا »[٢] ثم كره القراء ولعنهم أشد اللعن . « تباعد من القراء فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك . . . وإن أبغضوك شهدوا عليك ، وقبل منهم »[٣] .

ويقسم الفضيل العلماء إلى قسمين : عالم دنيا وعالم آخرة ، فعالم الدنيا منشور علمه ، وعالم الآخرة مستور علمه . . . « فاتبعوا عالم الآخرة ، واحذروا عالم الدنيا ، لا يصدكم بسكره ثم تلا هذه الآية : إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » . ويفسر الأحبار بالعلماء والرهبان بالعباد[٤] . ثم يقرر : إن كثيراً من علمائكم زيه أشبه بزى كسرى وقيصر منه بمحمد ﷺ . إن محمداً لم يضع لبنة على لبنة ، ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم ، فسمحوا إليه . . . ولذلك احتقر الفضيل العلماء . . . إن المراد بالعلم الحكمة ، ولكن هؤلاء العلماء أرادوا بعلم الدنيا . ولذلك لم يكن العلماء ورثة الأنبياء عنده « إنما الحكماء ورثة الأنبياء[٥] » . ثم كره هؤلاء الذين يمشون فى لباس الصوف ، مدعين التزهد والحكمة ، وهو يخرج من المسجد الحرام فيقول « وددت أنى لم أركم ولم تروني ، أتروني سلمت منكم ، أن أكون ترمالكم حيث رأيتكم وتراءيتم لى . لأن أحلف عشرا أنى مرائى وأنى مخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك ، لقد أيقن أن لباس الصوف مراء واشتهار فكرهه . وهو يقول : « تزينت لهم بالصوف ، ولم ترهم يرفعون لك رأساً ، تزينت لهم بالقرآن ، فلم تر هم يرفعون لك رأساً ، تزينت لهم بشىء بعد شىء ، كل ذلك إنما هو لحب الدنيا[٦] » . وكم كان ينهى عن الشهرة ويوصى بالإخفاء « أخف مكانك ، لا تعرف ، فتكرم بعملك ، واخزن لسانك إلا من خير) . وينتهى به الأمر إلى التوبة عن الدنيا – كلها – وهذا حلال التوبة عندى . . . لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت على حلالا ، لا أحاسب بها فى الآخرة ، لنكت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة ، إذ مر بها أن تصيب ثوبه[٧] » بل تمنى أن لم يكن قد خلق « والله لأن أكون هذا التراب أو هذا الحائط ، أحب إلى من أن أكون فى مسلخ أفضل أهل الأرض اليوم ، وما يسرنى أن أعرف حق معرفته إذاً لطاش عقلى » ، ويتمنى مرة أخرى أن يعيش كلباً ويموت كلباً ، ولا يرى القيامة » . ولقد أفزعته فكرة

---

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٠١ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٠ .
(٣) السلمى : طبقات ص ١١ .
(٤) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٢٨٧ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٢ .
(٦) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٨ .
(٧) نفس المصدر : ج ٨ ص ٨٩ والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٨ .

القيامة أشد الفزع فتمنى – وهو الذى تاب عن الدنيا كلها – ألا يكون . وعجباً – أنه كان يتشوف فى الحرم إلى اللاشيئية ، إلى العدم المطلق . . . كانت المنح الإلهية تتوارد إليه ، وهو يخشى « ما يسرنى أن أعرف هذا الأمر حق معرفته ، إذاً لطاش عقلى ، ولم أنتفع بشىء » . ويتطلب اللاشيئية « ما أغبط ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلاً ، يعان القيامة وأهوالها ، ما أغبط إلا من لم يكن شيئاً [1]. ثم يقرأ « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم . . . وجعل يصيح فى دلال « ونبلوا أخباركم ، وتبلوا أخبارنا . إن بلوت أخبارنا فضحتنا ، وهتكت أستارنا ، إنك إن بلوت أخبارنا ، أهلكتنا وعذبتنا [2]. ويندفع فى البكاء .

٣– الدنيا عند الفضيل بن عياض :

لقد دفعت التوبة عند الفضيل بن عياض إلى تصوير الدنيا ، تصويراً صوفياً دقيقاً وهو يمثلها بدار اشتراها صديق له فهى « تعرف بدار الغرور ، حد منها فى زقاق الفناء إلى عسكر الهالكين . ويجمع هذه الدور حدود أربعة هى الحد الأول : ينتهى منها إلى دواعى العاهات ، والحد الثانى ينتهى إلى دواعى المصيبات ، والحد الثالث ينتهى فيها إلى دواعى الآفات ، والحد الرابع إلى الشهوات : إلى الهوى المردى والشيطان المغوى « وفيه يشرع باب هذه الدار على الخروج من عز الطاعة إلى الدخول فى ذل الطلب » . ثم يأتى الموت . . . لقد أبلى أجسام الملوك من قبل ، وسلب نفوس الجبابرة ، وأزال ملك الفراعنة والأكاسرة والقياصرة . وأشخصهم إلى موقف العرض العظيم . ويرى الفضيل بن عياض أن هذه الصرخات القلبية قد لا تنفذ إلى أعماق سامعيه فيلجأ إلى العقل ، إن العقل يؤيد ما يذهب إليه القلب فى معرفة الدنيا « يشهد على ذلك العقل ، إذا خرج من أسر الهوى ، ونظر بالعينين إلى زوال الدنيا ، وسمع صارخ الزهد عن عرصاتها . ما آمن الحق لذى عينين . إن الحق أحد اليومين » .

ومن العجب أن يلجأ زاهد متوصف إلى شاهد العقل ، وقد كانوا يؤمنون بشواهد القلب . ولكنه كان يرى علماء المسلمين يتزاحمون على أبواب الملوك . لقد وقفوا على باب هارون الرشيد وأخضعوا له هاماتهم « ما لكم وللملوك » . ما أعظم منتهم عليكم ، قد تركوا لكم طريق الآخرة ، فاركبوا طريق الآخرة ، ولكن لا ترضون . تبيعونهم بالدنيا ، ثم تزاحمونهم على الدنيا ، ما ينبغى لعالم أن يفعل هذا [3] » . وها هو يعظ سفيان بن عيينة المحدث المشهور فيقول له « كنتم معشر العلماء سرج

---

(١) أبو نعيم : حلية : ج ٨ ص ٩٠ .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء ج ٨ ص ١١١ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٢ .

البلاد ، يستضاء بكم ، فصرتم ظلمة ، وكنتم نجوماً يهتدى بكم ، فصرتم حيرة ، ثم لا يستحى أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظلمة ، ثم يسند ظهره يقول « حدثنا فلان عن فلان » . بل إنه يرى أن « طلب الدنيا بطبل ومزمار أحب من طلبها بالعبادة (١) » . ويقرر أنه لاينبغى لحامل القرآن ، أن يكون له إلى الخلق حاجة ، لا إلى الخلفاء ، فمن دونهم « ينبغى أن تكون حوائج الخلق كلهم إليه (٢) » . ولقد وقف هو نفسه من هارون الرشيد حين أدخل على الرشيد مرة ، وسعى إليه الرشيد مرة ، موقف « شيخ الحرم » ، «شيخ الزهاد» يعظه أشد الوعظ ، ثم يرفض هداياه . بل يطفئ السراج ، حتى يخرج أمير المؤمنين من بيته(٣) .

٤ – البكاء والحزن :

كان الفضيل أحد البكائين الكبار فى الإسلام . . . يقول تلميذه إبراهيم بن الأشعث ، ما رأيت أحداً كان الله فى صدره أعظم من الفضيل « الله فى صدره » ما أعجب تعبيرات هؤلاء الصوفية الأوائل ، إنهم يمهدون السبيل ، خلال امتلائهم بالفكرة الإلهية ، إلى الحلول . لم يقصد الفضيل أو إبراهيم بن الأشعث هذا . ولكن سينتهى المذهب إلى هذا فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وحين تتضح فكرة الحب فى نسق وجودى . وسينادى الصوفى حينئذ : رأيتك فى صدرى وفى قلبى . . . أنا أنت . ولكن كان العاصم الأكبر لزهاد القرن الثانى الهجرى – الضاربين نحو التصوف – هو الخوف ، فكانوا يبكون بكاء الخائفين ، وكانوا يخشون لقاء الله ، بينما حل الحب والاطمئنان إلى الحبيب لدى الحلاج ومدرسته محل الخوف ، فذهب بهم الوله إلى رؤيته فيهم ، فتاهوا وحاروا ، وزادوا فيه حيراناً وهياناً ، فقالوا بأنهم هو ، وهو هم .

كان الفضيل من الفريق الأول ، إذا ذكر الله أو سمع القرآن ، ظهر به الخوف والحزن ، وفاضت عيناه وبكى . أوكما نقل عنه ، كان دائم الحزن ، شديد الفكرة « رأى الله فى كل عمله ، وعلمه وأخذه وإعطائه ومنعه وبذله وبغضه وحبه وخصاله كلها (٤) » . ولقد سأله الناس « مالنا لانرى خائفاً ؟ فقال : لوكنتم خائفين ، لرأيتم الخائفين . إن الخائف لايراه إلا الخائفون . وإن الثكلى هى التى تحب أن ترى الثكلى (٥) . ولقد كان الفضيل يرى الحزن نعمة من الله ودليلاً على حب الله للعبد « إذا أحب

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٥ ، ١٠٨ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٨٤ .

(٥) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٣٠٨ .

الله عبداً، أكثر نجمه، وإذا أبغض الله عبداً وسع عليه دنياه. وحزن الدنيا يذهب بهم الآخرة، وفرح الدنيا للدنيا يذهب بحلاوة العبادة» وقد قال عبد الله بن المبارك «إذا مات الفضيل ذهب الحزن من الدنيا [١] ». وكذلك ذهب أيضاً وكيع بن الجراح [٢] ولقد كان الفضيل نفسه، يرى أنه لم يعد هناك خائف فى هذه الدنيا. يقول إذا قيل لك: تخاف الله، فاسكت. لأنك إن قلت لا. كفرت. وإن قلت نعم: فليس وصفك وصف من تخاف [٣] ومكان الحزن عند الفضيل هو القلب. ينبغى أن يفرغ من كل شىء سوى الحزن [٤] أما البكاء، فكان سنة الفضيل بن عياض «وكان هو وسفيان الثورى يتقابلان، ويتذاكران. ثم يبكيان سوياً... وأتى منصور بن عمار الواعظ البغدادى، إلى البيت الحرام ووعظ فغشى على الفضيل بن عياض... وعلى عرفة والناس تدعو، والبكاء يحول بينه وبين الدعاء، ثم يصرخ فى المسلمين «واسوأتاه»، وافضيحتاه. وإن عفوت [٥].

وتأتى شعوانة العابدة الإبلية المشهورة إلى البيت الحرام، ويذهب إليها «شيخ الحرم» يطلب منها أن تدعو الله له بدعاء. فتقول له «يافضيل: أما بينك وبين الله، ما إن دعوته استجاب. قال: فشهق الفضيل شهقة، فخر مغشياً عليه [٦].

وكان يخرج فى الجنائز يعظ ويذكر ويبكى حتى لكأنه يودع أصحابه ذاهب إلى الآخرة، حتى يبلغ المقابر، فكأنه بين الموتى، جلس من الحزن والبكاء حتى يقوم، ولكأنه رجع من الآخرة يخبر عنها.

٥- الزهد:

حدد الفضيل الزهد فى الدنيا بأنه هو «القناعة» ويشرح أبو طالب المكى هذا فيقول «فكانت الدنيا عنده الشبع وأكل الشهوات [٧] ولكن أبا نعيم يورد له أقوالاً فى الزهد أدق - «لايسلم قلبك حتى لا تبالى من كل الدنيا» أى أن يسلم قلبك من كل مافى الدنيا، فلا يأبه بك أحد: فالزهد إذن هو «القنع» وهو «الغنى الحق»... ولا يصل الإنسان إلى الإيمان حتى يزهد فى الدنيا [٨]. وأخيراً

---

(١) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٨٧.
(٢) القشيرى: الرسالة ج ١ ص ٣٣٠.
(٣) أبو طالب المكى: القوت ج ١ ص ٤٥٨.
(٤) حلية: ج ٨ ص ١٠١.
(٥) ابن الجوزى: صفة ج ٢ ص ١٣٥.
(٦) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ١١٣.
(٧) أبو طالب: القوت ج ١ ص ٥١١، ٥٤٢.
(٨) أبو نعيم: حلية ج ٨ ص ٩٤.

« جعل الخير كله فى باب ، وجعل مفتاحه الزهد فى الدنيا[١] وجعل الشر كله فى بيت ، وجعل مفتاحه الرغبة فى الدنيا[٢] . وأهم عناصر الزهد هو الزهد فى الناس « عامة الزهد فى الناس ، يعنى إذا لم يحب ثناء الناس عليه ، ولم يبال بذمتهم[٣] ولذلك نهى عن الاشتهار « إن قدرت أن لا تعرف ، فافعل » ، وما عليك إن لم يثن عليك وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس ، إذا كنت عند الله محموداً » ولا يمنع الزهد فى الناس ، من مؤاخاة بعضهم فى حب الله ، « نظر الأخ إلى وجه أخيه على المودة والرحمة عبادة » ولكن لا تصح المحبة فى الله إلا بشروط الرحمة فى الاجتماع ، والخلطة عند الافتراق بظهور التضحية واجتذاب الغيبة ، وتمام الوفاء ، ووجود الأنس ، وفقد الجفاء ، وارتفاع الوحشة ، ووجد الانبساط ، وزال الاحتشام « وإذا وقعت الغيبة ، ارتفعت الأخوة[٤] » . والعنصر الثانى الهام من عناصر الزهد هو الزهد فى الرياسة ، وهى آفة الناس عنده « نقل الصخور من الجبال أيسر من إزالة رياسة قد ثبتت فى قلب جاهل[٥] » .

٦- التعبيرات الصوفية : أو المذهب الصوفى :

وامتلأ تراث الفضيل بن عياض بالتعبيرات الصوفية الرائعة ، ولو وصلت إلينا أقواله كاملة ، لكان من الممكن اقامة مذهب صوفى للرجل ، لقد خاض الرجل فى علم إرادة النفس ، وترك فيها صوراً جميلة . ولم يعد طريق الله عنده مجرد طقوس وحركات . بل إن الجوهر الطريق إنما هو طريق إرادة النفس وإصلاحها « لم يدرك عندنا — من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة ، وإنما أدرك بسخاء الأنفس وسلامة الصدر ، والنصح للأمة[٦] » وعجباً أن يعلن الفضيل هذا فى القرن الثانى الهجرى — والفقهاء له بالمرصاد ، والدين فى نظرهم صيام وصلاة ومعاملات . ثم يقرر أن الزهد ليس هو فى الحركات وإنما « أصل الزهد — الرضا عن الله ، وأحق الناس بالرضا عن الله ، أهل المعرفة بالله[٧] . إنه يتكلم هنا عن « أهل المعرفة » ولم تصل إلينا نصوص أخرى توضح لنا حقيقة المعرفة عنده .

ثم يتكلم الرجل عن « الهروب إلى الله[٨] » ، والأنس به « طوبى لمن استوحش من الناس ، وأنس

---

(١) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩١ ، والسلمى طبقات ص ١٣ .
(٢) أبو طالب : القوت ج ١ ص ٥٢٣ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٨٨ .
(٤) أبو طالب : القوت ج ٢ ص ٤٤٩ — ٤٥٠ .
(٥) أبو طالب : قوت ج ١ ص ٥٤١ .
(٦) السلمى : الطبقات ص ١١ ، وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٤ .
(٧) نفس المصدر :
(٨) أبو نعيم : الحلية ج ٨ ص ٩٧ .

بربه ، ثم بكى على خطيئته[١] » . ولكن أى خطيئة تبقى آثارها ، حين يحل الرضا القلب « درجة الرضا عن الله عز وجل ، ودرجة المقربين ليس بينهم وبين الله إلا روح وريحان[٢] » . هو إذن من الروحانيين الذين يعاينون الآخرة ولا شك أنه عرف « الروحانية » من الكوفة ، ثم كان هو أيضاً صديقاً لروحانى كبير ، وهو سفيان الثورى . ثم انتهى إلى ترديد نغمات الحب الإلهى على شرفات مكة وعرصاتها وجبالها « وعزته ، لو أدخلنى النار ، فصرت فيها ما أيست[٣] » . لقد قسم الله المحبة[٤] ، وكانت قسمته . وإن الله ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا فيقول : « من ادعى محبتى إذا جنه الليل ، نام عنى كل حبيب يحب خلوة حبيبه ، ها أنذا مطلع على أحبائى ، إذا جنهم الليل ، مثلت نفسى بين أعينهم ، فخاطبونى على المشاهدة ، وحكمونى على حضورى ، غداً أقر أعين أحبائى فى جنتى[٥] » وأثر رابعة العدوية وحبها الإلهى واضح فيه تماماً . بل إنه يذهب فى الدلال وهو فى مرضه فيقول « ارحمنى بحبى إياك فليس شىء أحب إلى منك[٦] » وهو يتكلم عن آخر مراحل الحب ، وامتلائه — حين يسأل : متى يبلغ الرجل غايته من حب الله ؟ ويجيب الفضيل « إذا كان عطاؤه ومنعه إياك عندك سواء ، فقد بلغت الغاية من حبه[٧] . وأحياناً يعتبر الرضا هو استواء العطاء والمنع عند العبد . وحين وصل هو إلى الغاية من حبه ، كان فى القمة الأخيرة من حياته الصوفية . فلجأ إلى جبال مكة ، وخرج مجموعة من تلامذته إلى رأس الجبل ، فلم يجدوه . فجلسوا وقرأوا القرآن ، وخرج عليهم من شعب لم يروه . وصاح فيهم : أخرجتمونى من منزلى ، ومنعتمونى الصلاة والطواف ، أما أنكم لو أطعتم الله ، ثم شئتم أن تزول الجبال معكم زالت . ثم دق الجبل بيده فرأوا الجبال اهتزت وتحركت[٨] ، يشبه قول من قال « إن من أطاع الله ، أطاعه كل شىء ، ومن خاف من الله خاف منه كل شىء[٩] » فما بالك — وهو قد أحب الله .

---

(١) السلمى : طبقات ص ١٤ ، وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٠٨ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٩٧ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٨٨ .
(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٩ .
(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ٩٨ — ١٠٠ .
(٦) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٠٩ .
(٧) نفس المصدر : ج ٨ ص ١١٣ .
(٨) أبو طالب : قوت ج ٢ ص ٩٢ .
(٩) أبو طالب المكى : قوت ج ٢ ص ٨١ .

٧ – الفتوة والملامتية عند الفضيل بن عياض :

لست أريد أن أعرض هنا «للفتوة» نشأتها وتطورها، معناها الدينى ومعناها غير الدينى. ولقد كثرت الأبحاث فى موضوع الفتوة الإسلامية وصلاتها بالفروسية المسيحية. ثم نشر المرحوم الدكتور عفيفى كتابه «الملامتية والصوفية وأهل الفتوة»، وحاول أن يلقى أضواء جديدة على تلك المفهومات الثلاث «الفتوة» و«الملاميتية» و«الصوفية» وأن يبين الصلات بينها، وقد نجح إلى أكبر حد فى معالجة هذا الموضوع الجديد، وأعقبه الدكتور كامل مصطفى الشيبى، فعرض للفتوة فى كتابه «الصلة بين التصوف والتشيع»، وبين أصلها الكوفى، وصلتها بالتشيع. وانتهى إلى أنها اتصلت بعلى. وكان على فتى المسلمين جميعاً بلا جدال. ولكن الدكتور كامل مصطفى الشيبى حاول ما وسعه الجهد أن يثبت أن نشأة الفتوة – كنظام – إنما بدأ فى الكوفة، وتطور عنها، وأن ازدهار الفتوة فى الكوفة إنما كان بتأثير كوفى – سواء بالأخذ عنها، أو بتخلل عناصر كوفية فى البيئة الخراسانية اختلطت بها وامتزجت، وعنها نشأت الفتوة. ثم ظهر أيضاً – وبعد ذلك كتاب «الفتوة» لابن المعمار مع مقدمة رائعة للدكتور مصطفى جواد، ولقد كشف كتاب الفتوة عن كثير من النواحى الغامضة لتلك الفرقة العجيبة.

والفتوة هى مجموعة من الفضائل أحقها الكرم والسخاء والمروءة، تميز المتصف بها من غيره من الناس[1]. وكان قوامها «الإيثار[2]» كان هذا هو المعنى القديم لكلمة «فتى»، ولكن حين أخذها الزهاد والصوفية، واعتبروها من مبادئهم وأضافوا إليها صفات أخرى تتصل كلها بفكرة الإيثار مثل: كف الأذى، وبذل الندى، وترك الشكوى، وإسقاط الجاه، ومحاربة النفس، والعفو عن زلات الآخرين.

أما القشيرى: فقد عدد تعريفات الفتوة المتعددة: فيعرفها هو فيقول: «أصل الفتوة أن يكون العبد ساعياً أبداً فى أمر غيره» ثم يضع تعريفات الصوفية المختلفة فيها. وسنعود إلى كل هذه التعريفات فى كتابنا عن التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجرى. أما ما يعنينا الآن هو أن أول تعريف يذكره زاهد أو صوفى، ويصرح فيه باسم الفتوة هو رجلنا الفضيل بن عياض. يقول الفضيل: الفتوة هى الصفح عن عثرات الإخوان[3]». ولذلك اعتبر الفضيل بن عياض أول فتى من الزهاد والصوفية. فيعتبره ابن المعمار «شيخ الفتيان»، ويورد له حديثاً عن الرسول فى الفتوة «قال رسول الله ﷺ – ليأتى

---

(١) دكتور أبو العلا عفيفى: الملامتية والصوفية وأهل الفتوة ص ١٩٧.

(٢) مقدمة كتاب ابن المعمار ص ١٠ للدكتور مصطفى جواد.

(٣) القشيرى: الرسالة ج ٢ ص ٤٧٣.

على الناس زمان تعدم فيه الفتوة ، وتنقضى فيه المروءة وتضيق فيه الأخلاق ، ويستغنى الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، فإذا كان ذلك ، فانتظروا العذاب ، صباحاً ومساء[1] .

ولا شك أن التأمل الذاتى فى حياة الفضيل بن عياض وفى كلماته ، ليبين بوضوح أن الرجل عاش عيشة إيثار ، ومروءة وسخاء . ولقد رأيناه مع خليفة المسلمين – هارون الرشيد «يتفتى» ويرفض عطاياه ، وقد كان فى أشد الحاجة إلى مال له ولأسرته ، فرفض كل شىء .

وقد قرن الفضيل فتوته بالملامة ، فاتضحت فيه تماماً روح الملامتية ، كما عرفها القرن الثالث والرابع . ولقد تنبه إلى ملامتية الفضيل بن عياض – علامة العراق الممتاز الدكتور كامل الشيبى ، يقول الدكتور كامل الشيبى : «ونستطيع فى بحثنا عن أصول الملامتية أن نجد أمثلة قديمة فيها ملامة بسيطة . فمن ذلك ما رواه أبو نعيم من أن بعض الزهاد قال : «وقفنا للفضيل بن عياض على باب المسجد – ونحن شبان علينا الصوف ، فخرج علينا فلما رآنا ، قال : وددت أنى لم أركم ، ولم تروني . أترونى سلمت منكم ، أن أكون ترساً لكم ، حيث رأيتكم وتراءيتم لى . لأن أحلف عشراً أنى مراء ومخادع أحب إلى من أن أحلف واحدة أنى لست كذلك» . وفى الحقيقة إن الدكتور الشيبى على حق . إنه أورد مثالاً واحداً . والأمثلة كثيرة ، وقد ذكرنا بعضها من قبل ، كان الفضيل يأخذ بأيدى سفيان ابن عيينة وشعيب بن حرب – ويذكرهما بأنه لا يوجد على الأرض من هو أسوأ منه ومنهما . وقد انتهى الدكتور كامل الشيبى إلى هذه النتيجة الرائعة «وبذلك يبدو الفضيل الكوفى – وهو الخراسانى السابق – ملامتيا قديماً من تفضيله أن يعرف بالرياء والخداع ، على أن يعرف بالولاية والزهد ، وأنه كان بالاختصار ملامتيا ، ما دام الملامتية «أظهروا للخلق قبائح ما هم فيه ، وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ، ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم» كما علمنا بذلك أبو حفص الفتى الخراسانى[2] » .

ولاشك أن روح الملامة تتضح فى حياة الفضيل بن عياض اتضاح روح الفتوة ، بل كان الفضيل بلا منازع أول فتيان زهاد المسلمين ، كما كان أول ملامتى بمعنى الكلمة .

° ° °

(١) ابن المعار : الفتوة ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) الدكتور الشيبى : الصلة ج ٢ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

٨- مدرسة الفضيل بن عياض :

كان لابد لشيخ الحرم أن يترك مدرسة كبيرة فى مكة ، بل فى العالم الإسلامى كله ، علاوة على توارث كبار الصوفية فى القرنين الثالث والرابع لكثير من عباراته وآرائه . كما أن الفتوة والملامتية ازدهرت فى موطنه الأصلى خراسان .

أما تلامذته المباشرون ، فأولهم على بن الفضيل ابنه . وقد ذهب بعض مؤرخى التصوف إلى أن علياً كان زاهداً من الطبقة الأولى ، وفضلوه على أبيه . ولكن لم يمتد به العمر .

وقد نشأ على بن الفضيل فى رحاب أبيه ، فى بيت الزهد الكبير ، فسار على نهج أبيه ، دون إخوته جميعاً . وكان يصلى الليالى حتى يزحف إلى فراشه ثم يلتفت إلى أبيه ويقول : يا أبت سبقنى المتعبدون[١] . وعاش فى مقام الخوف - كما عاش أبوه . ويقول سفيان بن عيينة « ما رأيت أحداً أخوف من الفضيل وابنه » . وكان أيضاً يصيبه الشهقة والصعقة عند سماع أحاديث النار[٢] » ، ولا يستطيع أن يقرأ سورة القارعة ، ولا أن تقرأ عليه ، وكان يصيح « النار . . . ومتى الخلاص من النار » . كما كان أيضاً من الروحانية ، ويذكر أبو نعيم أن أمير المؤمنين قد أخلى له الطواف ، وأراد الفضيل أن يغتنم الطواف ، فلم يستطع ، فقال له على « يا أبت : تغتنم خلوة الحور . » . وأخيراً طلب من أبيه « يا أبت : سل الذى وهبنى لك فى الدنيا ، أن يهبنى لك فى الآخرة ، ثم بكى . وحين مات ، كان الفضيل منكر القلب حزيناً ، وكان يقول « حبيبى من كان يساعدنى على الحزن والبكاء ، يا ثمرة قلبى ، شكراً لله ، على ما علمه فيك[٣] . ولم يقبل فيه تعزية ، إن الله قد أحب هذا له ، وهو يحب ما أحب الله . ويتذكره بشر بن الحارث الصوفى البغدادى ، ذلك ضمن عشرة كانوا ينظرون فى الحلال النظر الشديد ، « لايدخل بطونهم إلا الحلال ، ولو استفوا التراب[٤] » .

أما تلميذ الفضيل الثانى فهو صفيه وخادمه إبراهيم بن الأشعث . وقد كان إبراهيم أيضاً محدثاً[٥]. وقد نقل إلينا إبراهيم بن الأشعث أخبار عياض ، أما تلميذه الثالث فهو عبد الله بن يزيد مردويه - صاحب الفضيل بن عياض يكنى أبا عبد الله ويقال له مردويه الصائغ » فيما يقول الذهبى . ويذكر

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٩ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ - ٣٠٠ .
(٣) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ١٤٠ .
(٤) الذهبى : ميزان ج ١ ص ٢٠ .
(٥) نفس المصدر :

الذهبى أيضاً أن غالب ما يرويه إنما هى حكايات عن الفضيل . وقد مات مردويه سنة خمس وثلاثين ومائتين هجرية[١] .

أما الشخصية الرابعة من تلامذته فهى شخصية إبراهيم بن شماس السمرقندى . وكان أيضاً من كبار المحدثين ، وتتلمذ على الفضيل بن عياض كما تتلمذ على ابن المبارك . ثم سكن بغداد[٢] ، وكان يسلك فى زهده مسلك الفضيل .

ثم نجد تلميذاً خامساً : هو قادم الديلمى . يقول صاحب الحلية : إنه صحب الفضيل بن عياض وأقرانه ، وسلك مسلكه فى الخضوع والخشوع وقد سأل قادم الفضيل « من الراضى بالله » فأجاب الفضيل « الذى لا يحب أن يكون على غير المنزلة التى جعل فيها[٣] » .

ولسنا هنا نتتبع تاريخ مدرسة الفضيل ، أو نستقرى كل رجالها — إنما نضع صوراً منها . كان الفضيل مدرسة كبرى أثرت فى الزهد الضارب للتصوف فى القرن الثانى الهجرى ، ثم انتقل تأثيرها إلى القرن الثالث ، وكان مبشراً كبيراً بالفتوة والملامة . وما زال الكثير من أخبار الرجل وأقواله مبثوثاً فى الكتب ، أو لم يصل إلينا ، حتى نتمكن من رسم صورة كاملة للرجل ولآرائه .

---

(١) الذهبى : ميزان ج ٢ ص ٦٢١ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ١٠ ص ١٢٨ .

(٣) نفس المصدر : ج ١٠ ص ١٣١ .

الفصل الرابع

مدرسة بلخ

أو مدرسة إبراهيم بن أدهم

خرج من «بلخ» فى خراسان أكبر مدرسة للزهد الضارب نحو التصوف ، بل نكاد نجد أسس التصوف فى هذه المدرسة . وقد اتصلت هذه المدرسة بأول زاهد على وجه الحقيقة فيها هو إبراهيم بن أدهم (المتوفى عام ١٦١ أو ١٦٢ هـ = ٧٧٦ – ٧٧٨ م) . حقًّا لقد سبقه من قبل بعض الزهاد التقليديين كالضحاك بن مزاحم الهلالى وعطاء بن أبى مسلم ، وكان لهما لمحات جميلة من الزهد . ولكن ينبثق الزهد ، وروح الحياة الإسلامية انبثاقاً كاملاً لأول مرة فى خراسان فى إبراهيم بن أدهم .

وقد ذهب جولد تسيهر أن بيئة خراسان كانت معدة لهذه الحياة الروحية وبخاصة أن جهوداً عظيمة قد بذلت فى القرن الثانى لإغناء اللغة العربية بالمؤلفات الأعجمية ، فنقلت بعض المؤلفات البوذية إلى الأدب العربى ثم يذكر أن ترجمة عربية معدلة قد تمت لكتاب « بيلاوهر وبوداسف » ، وكذلك ككتاب البد وغرض جولد تسيهر واضح ، وهو أن يثبت أن الحياة الروحية فى فارس قد استندت على مؤثرات هندية . وقد تابع جولد تسيهر فى رأيه عدد من المستشرقين كنكلسون وعدد آخر من الباحثين العرب ، كأن الحياة الروحية فى الإسلام لاتنبثق إلا من الخارج .

ومما يدل على «الضيق الفكرى» ، أو اللاحية الهوجاء التى تميز بها جولد تسيهر ، أن المؤثرات التى ينبغى أن تتلمس فى فارس ، إنما ينبغى أن تكون فى التراث الفارسى القديم ، كان هذا التراث أقرب إلى أهل البلاد – فرساً أو عرباً من تراث الهند . ثم إذا كانت الكتب قد ترجمت فى القرن الثانى – وبمعنى أدق فى النصف الثانى من القرن الثانى ، فلا يمكن أن تنتشر فى عشية وضحاها ، كان لابد للآراء أن تنضج ، وتسير بطيئة ، ثم تسرى فى أعماق الحياة الروحية ، ولكن إبراهيم بن أدهم توفى عام– ١٦١ هـ أو ١٦٢ وقبل أن تترجم هذه الكتب . وثالثة : لم تكن بيئة المسلمين فى خراسان بيئة عقلية إبان ذلك الوقت ، كانت بيئة نقلية سمعية ، أى كان لحفظ الحديث وروايته المكان الأول . ومن خراسان ظهر ثم أتى رجال الحديث الكبار . ورابعة : إن أمامنا وبين أيدينا أقوال إبراهيم بن أدهم وتلامذته ،

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٤١ .

وسنعرضها للقارئ ، وسنفحص جوانبها . ولن نرى فيها ظلا لبوذية .

إن « السياحة » التى كانت وسما للخراسانيين ، لم تكن سياحة الحكيم الهندى العارى ، ولكنها كانت سياحة فى طلب الحديث . . . وقد أرخ عبدالله بن المبارك لأول سياحة جماعية خرجت من خراسان – فقال « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان ونحن ستون فتى ، نطلب العلم ، ما منهم آخذ غيرى »[1] هكذا كان خروج الخراسانيين ، فى طلب العلم ، أى فى طلب الحديث وقد فعل هذا الفضيل بن عياض من قبل وذهب الفضيل – كما رأينا – للكوفة ، فحدّث ، ثم تزهد ، وكذلك ذهب ابن المبارك فحدّث ومهر فى الحديث ، ثم أصابه رشاش من الزهد ، وأخيراً خرج إبراهيم بن أدهم للحديث ، فذهب إلى البصرة ، والبصرة موطن الروح ، وكانت فيها آثار مدرسة الحسن البصرى ومدرسة رابعة العدوية – مدرسة الروحانيين فى الإسلام ، . . . كما ذهب إلى الكوفة وحدث بها وأخذ عن سفيان الثورى . . . ثم انبعثت فيه نوازع الروح ، فلم يعد إلى خراسان ، بل انطلق إلى مكة أحياناً ثم إلى الشام والثغور يردد أنشودة الزهد ، ويقدم للتصوف أسسه الأولى . . .

وسنحاول أن نتتبع حياة الرجل ، وأن نحقق ما فيها من أساطير ، ثم نعرض لآرائه – وأخيراً – نتكلم عن تلامذته .

١ – حياة إبراهيم بن أدهم ودراساته :

أسطورة توبته : وكما أضفى مؤرخو التصوف الأقدمون على توبة الفضيل بن عياض الخراسانى – أسطورة – العيار – الشاطر – قاطع الطريق . . . الذى يتسلق الجدار لحبيبته فيسمع صوت الهاتف من وراء الغيب ينهاه ، كذلك فعلوا فى توبة إبراهيم بن أدهم . . . ووضعوا هذه التوبة على لسانه هو تحت إلحاح فى القول من خادمه وصفيه إبراهيم بن بشار : يسأله إبراهيم بن بشار: يا أبا إسحاق – كيف كان أوائل أمرك حتى صرت إلى ما صرت إليه . ويتأبى إبراهيم بن أدهم أن يجيب – ولكن خادمه يصر ويلح : فيجيب إبراهيم : كان أبى من أهل بلخ أوكان من ملوك خراسان ، وكان من المياسر ، وحبب إلينا الصيد ، فخرجت راكباً فرسى ، وكلبى معى ، فبينا أنا كذلك ، فثار أرنب أو ثعلب ، فحركت فرسى ، فسمعت نداء من ورائى : ليس لذا خلقت ، ولابذا أمرت . فوقفت أنظر يمنة ويسرة ، فلم أر أحداً . فقلت : لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء أجهر من ذلك : يا إبراهيم ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت : فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلا أرى أحداً : فقلت : لعن الله إبليس . ثم حركت فرسى ، فأسمع نداء من قربوس سرجى : يا إبراهيم : يا إبراهيم ما لذا خلقت ، ولا بهذا

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٦ .

أمرت : فوقفت وقلت : أنبهت . . . أنبهت ، جاءنى نذير من رب العالمين ، والله لا عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى . فرجعت إلى أهلى ، فخليت عن فرسى ؛ ثم جئت إلى رعاة لأبى فأخذت منه جبة وكساء ، وألقيت ثيابى إليه . . . حتى وصلت إلى العراق ، أرض ترفعنى . . . وأرض تضعنى . . . » (١) تلكم هى القصة الدراماتيكية التى وضعها أغلب من أرخوا لإبراهيم بن أدهم من الأقدمين ، . . .

ولقد هلل . . . وصاح . . . جولد تسيهر . . . لقد وجد هنا ضالته ، التى تثبت أن بوذا . . . وقصته سيطرت على حياة صوفية الإسلام الأوائل . يقول جولد تسيهر « إن الفكرة الدينية المسماة بالزهد ، التى صادفت الإسلام السنى ، والتى لا تتفق مع السمات المألوفة التى نعرفها فى التصوف الإسلامى : تكشف عن آثار قوية تدل على تسرب المثل الأعلى للحياة عند الهنود إلى المسلمين ، ومن أعظم المعبرين عن فكرة الزهد هذه ، الشاعر أبو العتاهية التى عرض أنموذجاً للرجل الفاضل الجليل بقوله :

يا من ترفع للدنيا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف الناس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين

أو ليس هذا هو بوذا »

ثم يمضى فى استدلاله المريض فيقول « ومن الشواهد القوية التى ينبغى أن تعد قاطعة فى الموضوع الذى نعالجه أن قصة أحد الصوفية الكبار فى الإسلام تشبه السمات البارزة فى سيرة بوذا ، وأريد بهذا قصة الولى إبراهيم بن أدهم المتوفى فيما بين سنتى ١٦١/١٦٢ هـ = ٧٧٦ – ٧٧٨ م ، . . . وقد اختلفت القصص الخاصة بحياته فى بواعث فراره من الدنيا ، ولكن كل الروايات تدور فى جوهرها على الفكرة ذاتها . فهى تخبرنا أن إبراهيم كان ابن ملك من ملوك بلخ – الذى حزم أمره فى بعض الروايات – عندما سمع صوتاً من السماء يناديه ، وفى روايات أخرى . بسبب تفكيره فى الحياة التى لا تشوبها نوازع أو حاجات ، وذلك عندما أطل من نافذة قصره ، فرأى رجلاً فقيراً – فخلع ثوب الإمارة ، ورمى به بعيداً وأبدله بأطمار سائل ، ثم غادر قصره ، وهجر كل مايربطه بالعالم حتى زوجه وأولاده وأوى إلى الصحراء » .

ثم يذكر جولد تسيهر أن هناك بواعث أخرى مختلفة عن اعتزال هذا الأمير لحياته المترفة وإقباله على الزهد ، وأن باعثاً من هؤلاء البواعث يستحق الالتفات والنظر ، ويستند جولد تسيهر فى هذا على الصوفى المتأخر جلال الدين الرومى . فجلال الدين يذكر أن رجال الحرس فى قصر إبراهيم بن أدهم

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦٨ . والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥١ ، والسلمى : طبقات ص ٢٧ ، والخوانسارى روضات الجنات ص ٣٩ .

سمعوا جلبة وضوضاء فوق سطح القصر ، فذهبوا لاستطلاع الأمر ، فوجدوا قوماً يبحثون عن إبلهم الضالة ، فأتى الحراس بهؤلاء القوم إلى الأمير . وحين سألهم (هل حدث أن تفقد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل) . أجابوا (نحن لا نعمل إلا اقتداء بل أنت الذى تسعى إلى الاتحاد بالله ، بينا أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل فى مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله . فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت[١] .

وهكذا يستخرج جولد تسيهر نظريته فى أثر العقائد الهندية فى الآراء الصوفية الإسلامية الأولى . وما أشد تهافت مقدماته ونتائجه . لقد اتخذ أسطورة وضعها مؤرخو التصوف فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ، واتخذها مادة له ، كما استند على أقوال صوفى متأخر – هو جلال الدين الرومى – ليؤيد هذه المادة الأسطورية ، ولينتهى إلى أن الحياة الروحية فى الإسلام مدينة لعوامل خارجية هندية وفارسية وأفلاطونية محدثة . وأن الإسلام خلو من كل هذا . وليس هذا هو التاريخ الصحيح النزيه القائم على البحث العلمى .

ثم نجد نيكلسون يتخبط فى آرائه ، فبينما يقول فى كتاب من كتبه بأنه « لا يرى فى أقوال متصوفة – من أمثال إبراهيم بن أدهم (المتوفى سنة ١٦١ هـ) وداود الطائى (المتوفى سنة ١٦٥) والفضيل بن عياض (المتوفى سنة ١٨٧ هـ) وشقيق البلخى (المتوفى سنة ١٩٤ هـ) – مايدل على أنهم تأثروا بالمسيحية أو بأى مصدر أجنبى آخر إلا قليلاً »[٢] نراه يقول فى كتاب آخر يتابع جولد تسيهر ويكرر رأى جولد تسيهر القائل « بأن الزاهد الصوفى إبراهيم بن أدهم يبدو فى الرواية الإسلامية أميراً لبلخ ، تخلى عن عرشه وأصبح درويشاً متنقلاً . وما ذلك إلا تكراراً لقصة بوذا[٣] ثم تابع المرحوم الدكتور عفيفى جولد تسيهر ونيكلسون فى رأيهما[٤]. أما العلامة العراقى الممتاز الدكتور كامل الشيبى فقد ذهب إلى أن قصة تزهد إبراهيم بن أدهم تذكرنا بنبوة موسى ، حين حدثه الله من الشجرة[٥]. وتؤيد إحدى الروايات التى يذكرها ابن الجوزى والخوانسارى صاحب روضات الجنات هذا التخريج إذ يذكر كان إبراهيم على فرسه يركضه ، إذ سمع صوتاً من فوقه : ما هذا العبث ، أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون . اتق الله وعليك بالزاد ليوم القيامة[٦] . ولا شك أن هذا التفسير أقرب إلى حياة إبراهيم

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة ص ١٤٢ – ١٤٤ .

(٢) نيكلسون: فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٣ .

(٣) نيكلسون: الصوفية فى الإسلام ص ٢٢ .

(٤) الدكتور عفيفى : التصوف : الثورة الروحية فى الإسلام ص ٨٢ .

(٥) الدكتور الشيبى : الـ ... ج ١ ص ٣٥١ .

(٦) ابن الجوزى : ... ، ص ١٢٧ ، والخوانسارى : روضات ص ٣٩ .

ابن أدهم وآرائه . ولكن هل حدثت تلك القصة الأسطورية .

إن أسطورة أبناء الملوك من الصوفية كثيرة فى كتب طبقات الزهاد والصوفية ، كانت غايتها متعددة . . . إلى محاربة «الملك الدنيوى» «بالملك الأخروى» ووضع هذا فى موازاة ذاك . . . هذا عرض زائل فان ، وذاك جوهر باق خالد أبدى .

وثانياً – منح عزاء خارجى وداخلى لمن تزاهدوا وتصوفوا من أغنياء الناس وأواسطهم .

وثالثاً – تضخيم الصورة وتلوين الأسطورة إنما هى دعوة للتصوف فى أوساط العامة ونشر للفكرة الدينية نفسها . وقد استخدمت الطرق – حين تكونت – أساطير القدامى من الصوفية لتأييد مذاهبهم ونظرياتهم ، وقد دخل إبراهيم بن أدهم فى أساطير الطرق الصوفية وسلاسلهم . . . وسنتخذ قصة «الملك إبراهيم» أسطورة كبرى عاشت وما زالت تعيش مخترقة جبال طرسوس ومنتشرة فى تركيا ثم تخترق البحار فتحيا حتى الآن فى الملايو .

ومن هنا نرى أن أحد أبناء خراسان وفى مدينة بلخ جعل أسطورة «من زهدة أبناء الملوك . . . ورؤساء أرباب السير والسلوك ؛ بل من سلاطينهم السبعة فى أول طبقاتهم الخمس[1] وأخذت القصص والمخترعات تتوالى على صورته حتى كبرت صورته الأسطورية وكبرت . ولقد فعلوا هذا من قبل فى عمر بن عبد العزيز ، فقلبوا هذا الخليفة الأموى إلى صورة زاهد فى أطمار بوذا . . . وسيفعلون هذا فى شقيق البلخى وشاه بن شجاع الكرمانى . . . ثم الششترى والعدد العديد من الصوفية . . . وهؤلاء الصوفية – باستثناء الششترى – عاشوا فى خراسان ، فى فارس ، وبخاصة بلخ إحدى مراكز البوذية القديمة ، فهم إذن أثر من آثار البوذية . . . ولا يمكن أن تنشأ – لدى المسلمين – حياة للروح – اللهم إلا إذا انبثقت من عوامل خارجية . كانت هذه هى النتيجة التى استخلصها المستشرقون من أساطير وروايات مؤرخى التصوف الأقدمين .

ولسنا نود هنا أن نبحث أسطورة توبة إبراهيم بن أدهم من الناحية التاريخية . إن تهافتها واضح فلم يكن من ملوك خراسان أو بمعنى أدق من حكام المنطقة أو أمرائها أو من حكام بلخ وأمرائها . . . أمير يدعى أدهم بن منصور كان من أغنياء بلخ والموسرين بها ، وأنه اقتنى الضياع وبنى القصور . . . وعاش إبراهيم بلاشك فتى مترفاً كعادة أبناء الأغنياء والمترفين . يقول ابن الجوزى «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف ، وكان أبوه كثير المال والخدم»[2] وكان يخرج للصيد مع الغلمان والخدم . ثم إذا حدثت هذه الأسطورة فلا ضرر ولا ضرار . ولكن ماتلبث المصادر الصوفية أن تمدنا بقصة أخرى «لبوذا» كما

---

(١) الخوانسارى : روضات ص ٣٩ .

(٢) ابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٢٧ .

يتصور هؤلاء المستشرقون ، ولكن ليست فى بلخ « المركز القديم للبوذية » ولكن فى الشام فكأن بوذا انتقل أيضاً إلى الشام وتحقق فى شخصية شامية فيها . ومن العجب أن الذى يقص قصة هذا البوذى هو إبراهيم بن أدهم نفسه . . فإبراهيم بن أدهم يمر فى صحراء الشام على قبر . . هو وخادمه إبراهيم بن بشار . ويتوقف إبراهيم على القبر ويترحم على صاحبه ويبكى ويستوضحه خادمه وصفيه إبراهيم بن بشار جلية أمره . فيخبره بأن « هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها ، كان غرقاً فى بحار الدنيا ثم أخرجه الله عز وجل منها فاستنقذه ! . . لقد بلغنى أنه سر ذات يوم بشىء من ملاهى ملكه ودنياه وغروره وفتنته . . ثم نام فى مجلسه ذلك مع من يخصه من أهله . . فرأى رجلاً واقفاً على سريره وبيده كتاب ، فناوله ، ففتحه ، فإذا فيه بالذهب مكتوب ! . لا تؤثرن فانياً على باق ، ولا تغترن بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك ، فإن الذى أنت فيه جسيم ، لولا أنه عديم ، وهو ملك ، لولا أن بعده هلك ، وهو فرح وسرور ، لولا أنه لهو وغرور ، وهو يوم لو كان يوثق له بغد ، فسارع إلى أمر الله ، فإن الله قال « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » . . فانتبه فزعاً وقال : هذا تنبيه من الله عز وجل وموعظة . . فخرج من ملكه لا يعلم به ، وقصد هذا الجبل فتعبد فيه ، فلما بلغنى قصته ! وحدثت بأمره ، قصدته فسألته . فحدثنى ببدو أمره ، وحدثته ببدو أمرى ، فما زلت أقصده حتى مات ودفن هنا[1] » . . والقصة هنا تتشابه مع قصة إبراهيم بن أدهم ، غير أن المنادى نادى إبراهيم بن أدهم فى صحوه بينما أتى حميد بن جابر فى نومه .

إذن ما هى الحقيقة التاريخية لإبراهيم بن أدهم ، والتى يمكن استخلاصها من خلال الأخبار الكثيرة المتضاربة عنه .

إن أول مشكلة تقابلنا ونحن نبحث حياة إبراهيم بن أدهم وتراثه : هى مشكلة فارسيته أو عروبته . إن المستشرقين – وقد اعتبروه – مثالاً لبوذا فى العالم الإسلامى – ذهبوا إلى أنه فارسى طالما كانت بلخ – مركز البوذية – هى موطنه . وهذه أكذوبة كبرى ، مع أنه لا يقدح فى إسلاميته أو تصوفه كونه فارسياً أو عربياً . وكم قدمت فارس للعالم الإسلامى من علماء وفقهاء ومتكلمين ومحدثين وصوفية دافعوا عن حوزته ، ونشروا آراءه – ولكن هنا أخطأ المستشرقون ومن تابعهم من الباحثين العرب فى اعتبار إبراهيم ابن أدهم فارسياً إنه يمكن القول : أنه كان تعبيراً عن بيئة خراسان ، وأنه نبع عن كثير من مقوماتها . ولكن ليس فى تراثه الذى تركه لنا روح الفرس بالذات وهو نفسه – حين رحل إلى المشرق ، ونزل مكة والشام إلى البلاد العربية البحتة ، كره العودة إلى خراسان . حقًّا كانت عوامل روحية دعته إلى السفر

---

(١) ابن الجوزى : صفة ج ٢ ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .

من خراسان ، ولكن لا يوجد فى كتاباته نصوص تثبت أنه كان غريباً فى الديار التى لجأ إليها . إننا نرى فى الشخصيات الفارسية التى أثرت فى حياة الروح لدى المسلمين جميعاً تشوفها إلى أرض فارس ، فذهب سلمان إلى المدائن واستقر بها ، وهاجرت أسرة الحسن البصرى إلى البصرة ، وقد كان فى البصرة روح فارسية لاشك . . . وعاش حبيب العجمى فى البصرة ، ولم يبرحها إلا للحج . وإبراهيم بن أدهم لم يفعل ، وبقى فى المشرق حتى وفاته ولقد تنبه أبو نعيم إلى عروبته فقال « وكان من العرب من بنى عجل ، كريم الحسب [1] » .

ولقد هاجر فعلاً كثير من العجليين من الكوفة إلى خراسان ، وقد اتهمت هذه القبيلة بالتشيع وغلا بعض بطونها فى محبة أهل البيت . ولكن ليس يعنى هذا أن إبراهيم بن أدهم وأسرته كانوا شيعة وإن كان من محبى أهل البيت وقد خدم الباقر فى رواية وجعفر الصادق فى رواية ، وقد كانت هذه سنة المسلمين المخلصين جميعاً ، وهى محبة أهل البيت . ولكن هذا النص الذى يذكر أنه من العجليين . ولكن ما نلبث أن نظفر بنص آخر وهو أن إبراهيم بن أدهم حدث عن أبيه أدهم بن منصور العجلى [2] . « فإبراهيم بن أدهم إذن عربى من قبيلة عجل . واسمه الكامل هو إبراهيم بن أدهم بن منصور بن زيد بن جابر بن ثعلبة العجلى »[3] .

ومن المؤكد أن أباه كان من أغنياء بلخ ، ويبدو أيضاً أنه كان محدثاً ، وكان للحديث أهميته ، فتطلبه الناس أغنياء وفقراء . كما أن أدهم بن منصور كان أيضاً من أتقياء المسلمين ومحبى الزهاد . « كان أدهم رجلاً صالحاً » وقد ولد له إبراهيم فى مكة ، « فرفعه الرجل فى خرقة ، وجعل يتتبع أولئك العباد والزهاد ويقول : ادعوا الله له ، فيرى أنه قد استجيب لبعضهم فيه »[4] .

نشأ إبراهيم بن أدهم إذن فى بيت غنى ويسار ، ولكن صاحبه كان محدثاً وكان فى الوقت نفسه من « محبى العباد والزهاد » وقد شغل إبراهيم بن أدهم بالحديث . وقد ذكرنا من قبل قول عبد الله بن المبارك « خرجت أنا وإبراهيم بن أدهم من خراسان . . . ونحن ستون فتى نطلب العلم » والعلم هنا هو طلب الحديث . ويبدو أنه روى عن أبيه أولاً ، ثم عن جماعة من التابعين ثانياً . عددهم ابن الجوزى ، ونلحظ من بينهم « مالك بن دينار » الزاهد البصرى المشهور ، وتلميذ الحسن البصرى ، كما روى أيضاً عن « سفيان الثورى » . ولاشك فى أن رحلاته الأولى كانت تطلب الحديث ، سواء فى البصرة أو

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٢٧٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٥٥ .

(٣) الخوانسارى : روضات الجنات ص ٣٩ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧١ .

الكوفة . ولكن لم تطمئن نفسه إلى كل هذا ، فبدأت رحلاته إلى الشام وبلاد العرب والثغور والإسكندرية . ويهمنا فى حياة ابن أدهم وتطوراته الروحية اثنان ممن روى عنهم[١]: مالك بن دينار وسفيان الثورى ؛ كان مالك بن دينار يمثل مدرسة الحسن البصرى ، وإليه انتهت تعاليم الأستاذ ، ثم اعتنق مالك فكرة الروحانيين – كما ذكرت من قبل – ولقد أثر هذا كله فى إبراهيم بن أدهم . أما سفيان الثورى ، فيمثل مدرسة الحديث والفقه فى الكوفة الضاربة إلى الزهد . وقد انتهى سفيان نفسه إلى الزهد المطلق ، بل تردد على مدرسة البصرة ، ومال إلى الروحانيين أيضاً . . . ولقد لزم إبراهيم ابن أدهم سفيان الثورى مدة من الزمن وكانا إذا التقيا يتسامران حتى الصباح [٢] ، وذهبا مراراً سوياً إلى الحج ، وإلى بيت المقدس . وفى بيت المقدس دخل سفيان وإبراهيم بن أدهم ومعهما مجموعة من زهاد المسجد الأقصى ، وانحرفَ سفيان يريد الصخرة فقال له إبراهيم : يا أبا عبد الله ارجع ، فإنك أتيت وصرت لنا إماماً ، فلا يراك الناس ، فيروه حتماً ، فأطاعه سفيان [٣] . وهنا موقف رجل يتابع الأثر متابعة تامة . بل ينهى سيد المحدثين عن أن يبتدع سنة لم يسنها الرسول ولا الصحابة ولا التابعون من قبل . . إذن كان إبراهيم بن أدهم محدثاً . ولكنه رأى الحديث للدنيا ، فأخذ منه آدابه «كان إبراهيم بن أدهم إذا سئل عن العلم أجاب بالأدب» . وقد سئل أيضاً «ألا حفظت – كما حفظ أصحابك . فأجاب «كان همى هدى العلماء وآدابهم» وهو يقرر «ما يمنعنى من طلب العلم أنى لا أعلم ما فيه من الفضل ؛ ولكن أكره أن أطلبه – مع من لا يعرف حقه» فالعلم إذن أى «الحديث» ينبغى أن يكون طريقاً لآخرة ، لا للتكسب والشهرة . وهو ينعى على سفيان الثورى أنه حدث . . فيقول «قد سمعنا كما سمع ، فلو شاء سكت ، كما سكتنا» [٤] .

ولكن يبدو أن أثر البصرة كان أقوى فى إبراهيم بن أدهم لقد تردد الرجل بين المدينتين : كان فى الكوفة الحديث والفقه ، وكان فى البصرة الزهد والحديث . . وكان مالك بن دينار وعطاء السليمى ومدرسة الحسن البصرى ومدرسة رابعة يخوضون فى الزهد . ورأى إبراهيم بن أدهم سفيان الثورى : فقيه الإسلام ، ينتهى أيضاً إلى الزهد ، كما رأى مواطنه عبد الله بن المبارك يأخذ نفس المنحنى ، وكان فى مكة الفضيل بن عياض الخراسانى أيضاً ممثلاً للبهاء الإلهى فى حرم الله . . وكان الطريق أمامه واضحاً ، تزهد الرجل على أيدى المشيخة البصرية من تلامذة الحسن البصرى وكان نتاجاً رائعاً لها .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧١ .
(٢) نفس المصدر : ج ٨ ص ٣١ .
(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٥٠ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٧ .

وخرج منها مراراً وقد صحبه مشيختها : أبو إسحق الفزارى ومخلد بن الحسن وحذيفة المرعشى وأبو يوسف العشولى وتفرقوا فى الثغور مرابطين . . . أو عاشوا معه يتكسبون الحلال . أما هو فلم يخرج لجهاد أو لرباط – كما قال هو – بل خرج طلباً للكسب الحلال[1] أن يأكل من عمل يده . ولذلك أبى أشد الإباء أن يعود إلى خراسان ، بل كانت وجهته الشام بالذات ، حيث العمل ، عمل فى الحصاد والزرع ، عمل أجيراً – للمسلمين وللنصارى . وأنكر بأشد الإنكار « المسألة » أى مساءلة الناس . وهو هنا أيضاً يترسى خطى أستاذه مالك بن دينار . وكان مالك ينكر المسألة ، ويقيم أوده من كتابة المصاحف . . . ولم ينس إبراهيم بن أدهم البصرة ، فقد عاد إليها مراراً . . . وقد أصبح الشيخ الرسمى للزهاد ، ويبدو أن هذا قد تم بعد وفاة مالك بن دينار . وقد لجأ إليه أهل البصرة وهو يمر فى أسواقهم يوماً ، وقالوا له : يا أبا إسحق إن الله تعالى يقول فى كتابه « ادعونى أستجب لكم » ونحن « ندعوه منذ دهر ، فلا يستجيب لنا » فقال إبراهيم « يا أهل البصرة . . . ماتت قلوبكم فى عشرة أشياء .

أولها – عرفتم الله ولم تؤدوا حقه .

الثانى – قرأتم كتاب الله ، ولم تعملوا به .

والثالث – ادعيتم حب رسول الله ، وتركتم سنته .

والرابع – ادعيتم عداوة الشيطان ووافقتموه .

والخامس – قلتم نحب الجنة ولم تعملوا لها .

والسادس – قلتم : نخاف النار ورهنتم أنفسكم بها .

والسابع – قلتم إن الموت حق ، ولم تستعدوا لها .

والثامن – اشتغلتم بعيوب إخوانكم ونبذتم عيوبكم .

والتاسع – أكلتم نعمة ربكم ولم تشكروها .

والعاشر – دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بها[2] .

ونلاحظ هنا أنه وضع « المعرفة » على قمة الأمور التى ينبغى على المسلم أن يشغل بها . ولاشك أن فكرة « المعرفة » بدأت تتضح لدى الزهاد ، وتدخل فى الزهد وتضرب به نحو التصوف . ومن المحتمل أن تكون صلاته بالشاميين قد ألقت إليه ببعض المعانى عنها أو أن مالك بن دينار علمه إياها ، إنه يذكر هو نفسه للأوزاعى حين مقابلته له فى الشام « يا أبا عمرو كثيراً ما يقول مالك بن دينار : إن من عرف الله تعالى فى شغل شاغل وويل لمن ذهب عمره باطلا[3] .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧٣ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٣ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٥ ، ١٦ .

وإن كان مؤرخو التصوف يحملونه قصة مقابلته لراهب اسمه سمعان ، وأن إبراهيم بن أدهم تعلم المعرفة منه . . . ويقص إبراهيم قصة مقابلته لذلك الراهب : يقول إبراهيم : تعلمت المعرفة من راهب يقال له : سمعان . دخلت عليه فى صومعته . فقلت له يا أبا سمعان ، مذكم أنت فى صومعتك هذه ؟ قال : منذ سبعين سنة . قلت : فما طعامك ؟ قال : يا ضيفى فما دعاك إلى هذا ؟ قلت : أحببت أن أعلم . قال : فى كل ليلة حمصة . قلت : فما الذى يهيج فى قلبك حتى تكفيه هذه الحمصة ؟ قال : ترى الدير بحذائك ؟ قلت : نعم . قال : إنهم يأتوننى فى كل سنة يوما واحدا ، فيزينون صومعتى ، ويطوفون حواليها ، ويعظمونى بذلك ، فكلما تثاقلت نفسى عن العبادة ، ذكرتها تلك الساعة ، وأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة ، فاحتمل يا ضيفى جهد ساعة ، لعز الأبد . فوقر فى قلبى المعرفة . فقال : حسبك أو أزيدك ؟ قلت بلى . قال : انزل عن الصومعة ، فنزلت ، فأدلى لى ركوة فيها عشرون حمصة . فقال لى : ادخل الدير ، فقد رأوا ما أدليت إليك . فلما دخلت الدير ، اجتمعت النصارى . فقالوا : يا ضيفى ما الذى أدلى إليك الشيخ ؟ . قلت : من قوته . قالوا : وما تصنع به . . . نحن أحق به . قالوا : ساوم . قلت : عشرين دينارا . فأعطونى عشرين دينارا . فرجعت إلى الشيخ ، فقال : ياضيفى . ما الذى صنعت ؟ قلت : بعته . قال : بكم ؟ قلت : بعشرين دينارا . قال : أخطأت لو ساومتهم عشرين ألفا ، لأعطوك . هذا عز من لا يعبده ، فانظر كيف يكون عز من يعبده . يا ضيفى أقبل على ربك . دع الذهب والجاه » . . . إذن يكون هذا الراهب هو سبب توبته ، وليس هذا النداء الذى سمعه من قربوس فرسه ، لو صحت هذه الرواية عن مقابلته لهذا الراهب . بل إن قصة أخرى عن مقابلته لراهب آخر تقرر أنه هو أيضا سبب توبته . . . فقد مر إبراهيم براهب آخر فى صومعته ، والصومعة على عمود ، والعمود على قلة جبل ، ورأى إبراهيم الرياح تعصف ، والصومعة تتايل . فنادى الراهب قائلا : يا راهب ، ولم يرد عليه ، وفى المرة الثالثة أخرج الراهب رأسه من الصومعة وأنبأ إبراهيم قائلا : لم تنوح ؟ سميتنى باسم لم أكن له بأهل . . . قلت . . . يا راهب ولست براهب ، إنما الراهب من رهب من ربه . . قلت : فمن أنت قال : سجان : سجنت سبعاً من السباع . قلت ماهو؟قال : لسانى سبع ضار ، إن سيبته فرق الناس . يا ضيفى : إن لله عبادا صما سمعا ، وبكما نطقا ، وعميا بصرا ، سلكوا خلال دار الظالمين ، واستوحشوا مؤانسة الجاهلين ، وشابوا ثمرة العلم بنود الإخلاص ، وقلعوا بريح اليقين ، حتى أرسوا بشط نور الإخلاص ، هم والله عباد كحلوا أعينهم بسهر الليل ، فلو رأيتهم فى ليلهم ، وقد نامت عيون الخلق ، وهم قيام على أطواقهم ، ويناجون من لا تأخذه سنة ولا نوم ، يا ضيفى عليك بطريقهم . قلت : على الإسلام أنت ؟ . قال : ما أعرف غير الإسلام دينا . ولكن أتى إلينا المسيح عليه السلام ، ووصف لنا آخر زمانكم ، فخليت الدنيا ، وإن

دينك وإن خلق » . . . « فما أتى على إبراهيم شهرا حتى هرب من الناس . . »[١] ، وهذه هى إذن قصة أخرى فى سبب توبة إبراهيم ودخوله فى طريق العباد . وهى قصص – أرى منها – الافتعال الكثير ، وإن كان من المحتمل أن إبراهيم بن أدهم – قد اختلط بالرهبان فى سياحاته المتعددة فى طلب الحديث ، ثم فى زياراته المتكررة للبصرة وللقدس وللشام والتى انتهت بتخليه عن الدنيا . وقد نسب إلى أستاذه مالك بن دينار أيضا وقوفه على الصوامع ومخاطبته للرهبان . ثم إننا نجد أيضا فى تراث إبراهيم ابن أدهم الكثير من الإسرائيليات ، ولا شك أنه اطلع عليها ، وعرفها كما عرفها مالك بن دينار . وقد ذهب ماسينيون إلى أن إبراهيم بن أدهم قابل الأسينيين – أى المسيحيين الحقيقيين فى فلسطين . وقد قلت من قبل إنهم العيسيون وأن عيسى المسيح كان عضوا فى هذه الجماعة أو رئيسها .

وهنا نتساءل : هل عرف إبراهيم بن أدهم العلوم السرية من كيمياء وسيمياء . . وقد كانت هذه العلوم منتشرة فى الكوفة بالذات ، وبالتالى كانت منتشرة فى خراسان . إنه كان معاصرا لجابر بن حيان الكيميائى المشهور ، وقد عاش جابر فترة من حياته فى خراسان ، حينما كان أبوه داعيا للعباسيين ، وكما تعلم جابر بن حيان الكيمياء – فى أول أمره – على حربى الحميرى ، تعلم إبراهيم بن أدهم « اسم الله الأعظم » على يد شخصية غامضة هى شخصية داود البلخى . والأخبار عن داود قليلة جدا ولا نعرفها إلا فيما يقصه إبراهيم بن أدهم نفسه لأسلم بن زيد الجهنى الزاهد الإسكندرانى المشهور . . . يقول إبراهيم بن أدهم « أصبت رجلا بين الكوفة ومكة ، فإذا صلى ركعتين تجوز فيهما وتكلم بكلام خفى بينه وبين نفسه ، فإذا عن يمينه حفنة ثريد وكوز ماء فأكل وأطعمنى . . . فذكرت ذلك لأسلم بن زيد الجهنى فقال له : يا بنى – ذاك أخى داود – ووصف من حاله ما أبكى من حوله – ومسكنه من وراء نهر بلخ بقرية يقال لها الصادر ، تفخر على البقاع بكينونة داود فيها . ثم قال : يا بنى : ماذا علمك ؟ قلت : علمنى اسم الله الأعظم . فقال الشيخ : ما هو ؟ قلت له : إنه لكبير فى قلبى أن أطلق به لسانى ، فإنى سألت الله مرة وإذا رجل يحجزنى ، فقال : سل تعطه . فراعنى ذلك ، وفزعت منه فزعا شديدا . فقال : لا بأس ولا روع ، أنا أخوك الخضر . . إن أخى داود علمك اسم الله الأعظم ، والله يثبت به قلبك ، ويقوى به ضعفك ، ويؤنس به وحشتك ، ويؤمن به روعتك ، ويجدد به رغبتك ويعينك . إن الزاهدين فى الدنيا اتخذوا الرضا عن الله لباسا وحبه دثارا ، والأثرة شعارا . . . فتفضل الله عليهم »[٢] .

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٩ / ٣٠ وابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ١٠٢ ، ١٣٥ .

(٢) أبونعيم : حلية ج ١٠ ص ٤٤ ، وابن الجوزى : صفة ج ٤ ص ١٣٢ ، والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٢ ، والحريفيش : الروض الفائق ص ١٢٤ ، والسلمى : طبقات ص ٣٠ ، ٣١ .

هذه هى الشخصية الغامضة التى علمت إبراهيم بن أدهم اسم الله الأعظم ، ويرى الدكتور كامل الشيبى أن أكسير الكيمياء النفسية ، هو اسم الله الأعظم وهذا الأكسير النفسى أو هذا الاسم هو الذى يحقق كل المعجزات مادية ومعنوية مما لا يصل إليه الأكسير المادى فى تأثيره [١] . وقد لاحظ الدكتور الشيبى أيضا أن إبراهيم بن أدهم ينتمى إلى قبيلة عجل وفى هذه القبيلة من قبل – ظهرت فكرة الاسم الأعظم على يد عجلى أيضا هو المغيرة بن سعيد «وأن إبراهيم بن أدهم كما رأينا – كان ينتمى إلى هذه القبيلة[٢] . ولكن هل عرف إبراهيم بن أدهم الكيمياء نفسها ، وبخاصة أنه خدم جعفرا الصادق ، وكانت مراكز الكيمياء ودراستها تنتشر فى المجامع المحيطة بجعفر. ثم إن إبراهيم بن أدهم كان – كما قلنا – معاصرا لجابر بن حيان . ثم هل عرف إبراهيم بن أدهم السحر ، وبخاصة أن أبا نعيم يذكر أنه كان يتصل بالجن ، وأنهم كانوا يعاشرونه ويرحلون معه [٣] . إن الأمر فى حاجة إلى بحث أكثر فى حياة إبراهيم بن أدهم وتتبع أخباره ورحلاته . ولقد كثرت رحلاته وسياحاته . . . إلى العراق وإلى مكة ، إلى الشام ، إلى الثغور ، إلى الإسكندرية ، ثم مات غازيا فى صور ، ودفن فى أراضى الشام ، الأرض التى أحبها ، ورفض أن يعود لخراسان لأجلها ، والذى آمن أن فيها وحدها الرزق المباح الحلال .

وسنحاول أن نعطى صورة تركيبية لآراء الرجل الروحية والتى عاونت أكبر معاونة على تطوير الحياة الروحية فى الإسلام من مرحلة الزهد إلى مرحلة التصوف .

٢ – الزهد والزهاد . . . ملوك الآخرة

لقد انتقل الفتى الغنى المترف من حياة الغنى والقصور – كما رأينا – إلى حياة الشظف القاسى ، وفعل هذا باختياره . . . ورفض أن يرث مال أبيه بعد موته ، ولقد كره البقاء فى خراسان واندفع إلى بلاد الشام ، هناك حيث تهنى بالعيش الوفير ، وكما يقول هو «يفر بدينه من شاهق إلى شاهق ومن جبل إلى جبل . . . فمن يرانى يقول موسوس ، ومن يرانى يقول حمال» . . ولم يلجأ إلى السؤال ، بل كرهه أشد الكره ، واحتقر كل زاهد يسأل فى الطريق ، أو على أبواب المساجد يسأل الناس . بل أخذ يعمل مزارعا وبستانيا وحمالا وحطابا [٤] ، ولم يأبه بالحج والجهاد ، وإن كان هو قد حج وجاهد وغزا

---

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ج ٢ ص ٣٣ .

(٢) المصدر : السابق ج ٢ ص ٥٧ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٤ / ٣٩٥ .

(٤) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٢ .

إنه يقول لتلميذه شقيق البلخي : يا شقيق ، لم ينبل عندنا من نبل ، بالحج ولا بالجهاد ، وإنما نبل من عندنا من نبل ، من كان يعقل ما يدخل جوفه – يعني الرغيفين – من حله[١] » ولذلك اعتبره الصوفية من بعده أنه أحد كبار رجال الورع في الإسلام . لابد وأن الرجل قد رأى في خراسان الناس يجمعون « المال الحرام » ويكدسون الذهب والفضة . . . فخرج إلى العراق فرأى في العراق نفس الشيء . . . كما رأى الغزو والحروب ، وما تنتجه آثارها من تقتيل وسبي ، وعاف هذا كله ، فخرج . . . سائحا . يعمل لأصحابه وينفق – وهو في فقره – عليهم ، بحيث أجمع زهاد الإسلام وصوفيته من بعده – أنه كان أسخى الناس « ما فاق إبراهيم بن أدهم أصحابه بصوم ولا صلاة ، ولكن بالصدق والسخاء » . . ويقول الأوزاعي « ليس في هؤلاء القراء من هو أفضل من إبراهيم بن أدهم فإنه أسخى القوم »[٢] وأخذ إبراهيم يضرب لهم أعظم المثل في الايثار والتواضع . . . يعمل للمسلم كما يعمل للمسيحي ، ويخدم أصحابه ، باع دابته لكي ينفق عليهم في مرضهم ، ثم يحملهم على ظهره فراسخ في الطريق . . . ثم يأوى هو وهم . . إلى العراء أو في الطريق البارد ، ويقذف بنفسه أرضا . . في اليوم الحار . . ويشرب بيده من ماء النهر ولا يأبه بجوع ولا عطش . وإذا ما اشتد به الأمر ، كما حدث له ولخادمه إبراهيم بن بشار ، ولم يكن معهما مال ولا متاع ولا طعام ولا شراب ، واغتم الخادم ، أعلن له إبراهيم بن أدهم أنهم ملوك الآخرة » وأنهم يسعون وراء « بحبوحة الجنة الباقية ، إنهم في طاعة الله الدائمة « يا إبراهيم بن بشار ماذا أنعم الله تعالى على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة في الدنيا والآخرة ، ملوك الدنيا أعزة في الدنيا ، أذلة يوم القيامة ، لا تغتم ولا تحزن ، فرزق الله مضمون سيأتيك ، نحن والله الملوك الأغنياء ، نحن الذين قد تعجلنا الراحة في الدنيا ، لا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا ، إذا أطعنا الله عز وجل » بل إن الملوك وأبناء الملوك ، لو علموا ما هم فيه من سعادة لحاربوهم عليهم « لو علم الملوك وأبناء الملوك ، ما نحن فيه من السرور والنعيم ، إذاً لجالدونا على ما نحن فيه بأسيافهم أيام الحياة على ما نحن فيه من لذة العيش ، وقلة التعب »[٣] . هذا هو الملك الزاهد ، عند إبراهيم بن أدهم خلي البال من كل مطالب الحياة ، يسير في الدنيا خاضعاً متذللاً ، منشوقاً نحو أمل أعظم ، غارقاً في هذا الأمل الكبير . هو والله فقط ، وكثيراً . . . ما كان يرتجز وهو يعمل .

اتخذ الله صاحبـــــــا ودع النـــاس جـــانبـــا . .

والملك الزاهد عنده لابد وأن يعمل . . وفي أثناء الحصاد . . في شهر رمضان . . قيل له :

---

(١) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٦٩ – ٣٧٠ .

(٢) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٩١ – ٣٧٢ .

(٣) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ .

يا أبا إسحق ، لو دخلت بنا إلى المدينة ، فنصوم العشر الأواخر بالمدينة لعلنا ندرك ليلة القدر ، فقال : أقيموا ههنا ، وأجيدوا العمل ولكم بكل ليلة . . ليلة القدر[1] » فالعمل عنده خير من التعبد — من الصلاة ومن الصيام ، ومن انتظار ليلة القدر . وغاية العمل عنده هى الحصول على رزق حلال بل إنه يقول «أطب مطعمك ، ولا عليك أن لا تقوم بالليل وتصوم النهار» [2] .

والملك الزاهد عنده لابد وأن يطأطئ الرأس للناس جميعاً ، إنه فى طلب ما يجهلون ، فلا يأبه بمساءاتهم ، بل يدعو لهم ويعفو ويتقبل ما يقدمون له من أذى . وقد ضربه أحد الجنود ظلماً على رأسه بالسوط ، فطأطأ إبراهيم رأسه وقال : اضرب رأساً طالما عصى الله[3] . بل إنه يذكر إنه ماسر فى إسلامه إلا ثلاث مرات «مرة كنت فى سفينة ، وفيها رجل مضحاك» كان يقول كنا نأخذ البلح فى بلاد الترك هكذا . . وكان يأخذ بشعر رأسى ويهزنى ، فيسرنى ذلك لأنه لم يكن فى السفينة أحد أحقر منه فى عينه منى . . والأخرى كنت عليلا فى مسجد فدخل المؤذن وقال اخرج . . . فلم أطق . فأخذ برجلى وجرنى إلى خارج المسجد . والثالثة : كنت بالشام وعلى فرو فنظرت فيه ، فلم أميز بين شعره وبين القمل لكثرته . . . فسرنى . . . ثم قال : ما سررت بشىء كسرورى أنى كنت يوما جالسا فجاء إنسان ومال على [4] . ويمر سالم الخواص فى يوم مطير على رصيف أنطاكية ، فيبصر إنساناً نائماً ، فلما قرب منه ، كشف النائم رأسه ، فإذا هو إبراهيم بن أدهم فى عباءة : فقال إبراهيم «يا أبا محمد طلب الملوك شيئاً ، ففاتهم وطلبناه ، فوجدناه ، ما يحوز حمى كسائى هذا .

هذا هو الملك الزاهد يعيش فى الدنيا — على اختيار الله ، حيث وضعه الله ، فى الحر وفى البرد ، وفى البادية ، فى الجبل فى البحر . . . إنه خير من الملوك «إذا بات الملوك على اختيارهم ، فبت على اختيار الله لك وارض به» .

والملك الزاهد عنده : . . . سيطر على اللذات كلها : منع نفسه أربعا : لذة الماء ، والحمامات . . . والحذاء . . . والملح الجيد . . . فيسير عطشان ، وعليه قميص واحد ، وحافى القدمين . . . وينأى عن طيب الطعام[5] بل إنه يأكل الطين إن لم يجد طعاما . . ولقد رآه أبو معاوية الأسود (وقد اعتبر اليمان صورة أخرى من أويس القرنى «يأكل الطين عشرين يوماً . . بل إن إبراهيم كان يتمنى لو عاش على الطين فقال لأبى معاوية — لولا أن أخاف أن أعين على نفسى ، ما كان لى

---

(١) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٧٨ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣١ .
(٣) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٧٩ ، والقشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٢ .
(٤) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٢٤٧ .
(٥) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٩٤ .

طعام إلا الطين حتى ألقى الله عز وجل . وأصابت إبراهيم مجاعة فمكث أياما يبل الرمل بالماء فيأكله[١] .

والملك الزاهد عنده . . أسخى الناس ، حتى فى فقره وفى مجاعته . . . يعطى ما يصل إليه – حتى عن طريق الورع – وهو فى أشد الفاقة . وكذلك كان « السلطان إبراهيم بن أدهم » أسخى الناس . وأكثرهم إيثارا . ولقد وضح مذهبه فى محاورته لتلميذه شقيق البلخى فى أول مقابلة له . فقد سأل إبراهيم شقيقا : على أى شىء أصلتم أصلكم ؟ فقال شقيق : أصلنا على أنا رزقنا أكلنا ، وإذا منعنا صبرنا . فقال إبراهيم : هكذا تفعل كلاب بلخ . فقال له شقيق . فعلى ماذا أصلتم ؟ قال : أصلنا على أنا إذا رزقنا آثرنا ، وإذا منعنا شكرنا وحمدنا » وكان الإيثار فعلا سنة إبراهيم بن أدهم ، كما كان الشكر والحمد فى أشد فاقته ومجاعته وعطشه دليله فى الحياة . . وقد قام شقيق فجلس بين يدى إبراهيم بن أدهم وقال له : يا أستاذ : أنت أستاذنا »[٢] وحين قدم عليه شقيق من خراسان مرة ثانية سأله : كيف تركت الفقراء من أصحابك فقال : تركتهم : إن أعطوا شكروا وإن أعطوا آثروا[٣] . فكان إبراهيم إذن معلم الإيثار فى العالم الإسلامى .

وأخيراً . . . إن الملك الزاهد ، عنده ، السلطان الغازى إبراهيم بن أدهم ، زهد فى الحلال ، فرفض أن يأخذ أسهمه ونفله . . فى الغزاة الأخيرة . . التى مات بعدها « فلم يأخذ أسهما ولا نفلا ، وكان لا يأكل من متاع الروم . . يجئ بالطرائف فلا يأكل منه » ولكنه يعلن « هو حلال ، ولكنى أزهد فيه ، وكان يأكل مما حمل معه ، وكان يصوم » ولقد اعتبر صاحب القوات إبراهيم بن أدهم « إماما فى العلم » ويذكر أنه قسم الزهد إلى ثلاثة أصناف « زهد فرض ، وزهد فضل ، وزهد سلامة فالفرض هو الزهد فى الحرام ، والفضل الزهد فى الشبهات

٣ – الآراء السيكلوجية الصوفية لإبراهيم بن أدهم :

حين انتهى إبراهيم بن أدهم من مرحلة الزهد ، ووصل إلى مرحلة الرضا وهى كما يقول نيكلسون ، مرحلة بين الزهد والثيوزوفيا – أى المعرفة ولكنا نظفر من إبراهيم بن أدهم بلمحات جميلة فى علم إرادة النفس ومعالجتها ، لقد رأى تقلبات النفس ، أهواء ونزعات . . وأخذ يجالد داخليا وهو نفسه يقول :

---

(١) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٨١ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٧ / ٣٨ .
(٣) أبو طالب المكى : قوت ج ١ ص ٤٠٥ .
(٤) نفس المصدر : ج ٧ ص ٣٨٨ .
(٥) نفس المصدر : ج ١ ص ٤٤ ، وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٦ .

«ما قاسيت شيئا من أمر الدنيا ، أشد على من نفسى ، مرة على ومرة لى ، وأما أهوائى—فقد والله—استعنت بالله عليه ، فأعاننى . واستكفيته سوء مغالبته فكفانى ، فوالله ما أسى على ما أقبل من الدنيا ، ولا ما أدبر منها»[١] . . كان الزهد إذن هو المرحلة الأولى عنده ، ثم أعقبها تلك المرحلة النفسية ، القلق العنيف ، ولذلك يقول على بن بكار «لم يكن إبراهيم بن أدهم كثير الصلاة ، ولكنه صاحب تفكر ، يجلس ليله يتفكر» [٢] ويذكر إبراهيم بن أدهم «أشد الجهاد الهوى ، ومن مَنع نفسه هواها . فقد استراح من الدنيا وبلائها ، وكان محفوظاً ومعافى من أذاها» [٣] فالنفس إذن هى سبب الهوى ، هواها وهوى الجسد ، وهنا يدعو لأمره فى تاريخ الزهد إلى النظر فى مرآة التوبة «إنك إذا أدمت النظر فى مرآة التوبة ، بأن لك شين قبح المعصية» [٤]

وجهاد النفس قاس ، حتى يصل الإنسان أو السالك إلى درجة «الصالحين» ولابد له أن يجوز ست عقبات : أولها : أن تغلق باب النعمة ، وتفتح باب الشدة .

وثانيتها : أن تغلق باب العز ، وتفتح باب الذل .

وثالثتها : أن تغلق باب الراحة ، وتفتح باب الجهد .

ورابعتها : أن تغلق باب النوم ، وتفتح باب السهر .

وخامستها : أن تغلق باب الغنى ، وتفتح باب الفقر .

وسادستها : أن تغلق باب الأمل ، وتفتح باب الاستعداد للموت [٥] .

هذه هى المجاهدة ، التى لا يفتح لكل شىء من الطريقة بدونها . ولقد عانى إبراهيم بن أدهم كل هذه العقبات ويذكر نيكلسون أن إبراهيم بن أدهم هنا يقترب من فكرة المعرفة ، فاجتياز العقبات الست إنما هى للوصول إلى— معرفة الله—معرفة ذوقية . ولكنه يحاول أن يصلها بالفكرة الغنوصية عن الأبواب السبعة التى لا تفتح للنفس—وهى سائرة فى طريقها إلى الخلاص—إلا إذا حصلت المعرفة أو العلم اللدنى ، واجتازت الحراس القائمين على هذه الأبواب واحدا واحدا . ويرى أن كلمة الحراس قد استكملت فيما بعد استكمالا مجازيا للدلالة على شهوات النفس : الهوى والجسد ونحوهما . ويقول نيكلسون «وليس عندى من شك فى أن المذهب الغنوصى—يعدها إصابة من التغيير والتحوير على أيدى مفكرى اليهودية والمسيحية ، وبعد بالنظريات اليونانية ، كان من المصادر الهامة التى أخذ عنها

---

(١) أبو نعيم حلية ج ٧ ص ٣٨ .

(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٨ .

(٤) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٦ .

(٥) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٥٣ ، ٢٦٦ .

رجال التصوف الإسلامى » [١] ولا شك أن الفكرة الغنوصية هذه قد أثرت فى بعض صوفية الإسلام فى القرنين الثالث والرابع الهجريين وما بعدهما ، فهل كانت هذه العقبات الست هى أيضا غنوصية ، وهل وصل المذهب الغنوصى إلى إبراهيم بن أدهم ، وقد صيغ فى هذه الصورة الاسلامية ، إن التأمل فى هذه العقبات الست لا يوحى أبداً بوجود مصدر خارجى لها ، وإن كان من المرجح أن إبراهيم بن أدهم عرف فكرة الأبواب السبعة ، وبخاصة أنه عرف فكرة غنوصية أخرى هى فكرة الاسم الأعظم ، ثم إنه أيضا اتصل بالرهبان ، وتعلم « المعرفة » من الراهب سمعان [٢]

على أية حال : حين وصل إبراهيم بن أدهم نفسه إلى مرتبة الصالح . . اجتياز العقبات الست اتجه إلى القلب . . . ورأى أن القلب يحجب بثلاثة أغطية . . « قد حجبت قلوبنا بثلاثة أغطية ، فلن يكشف للبعد اليقين ، حتى ترفع هذه الحجب : الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمدح . . [٣] ويقف عليه رجل صوفى ويسأله « يا أبا إسحق لم حجبت القلوب عن الله . قال : لأنها أحبت ما أبغض الله ، أحبت الدنيا ، ومالت إلى دار الغرور واللهو واللعب ، وتركت العمل لدار فيها حياة الأبد فى نعيم لا يزول ولا ينفد ، خالداً مخلداً فى ملك سرمد ، لا نفاد له ولا انقطاع [٤] ولا يتم الورع إلا « بتسوية كل القلق من قلبك [٥] ويذكر « القلب المعاين للآخرة » « ونصر القلب » الذى يطفئ بصر العين الناظرة لحب الدنيا ، فيتعذر حرامها ويجانب شهواتها وكثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب » وهنا سكت عن الناس ، « وآنس بالله » [٦] وانفتحت له عوالم القطبية ، فلجأ الناس إليه للدعاء والابتهال . يقسمون به ، فيقسم على الله ، فى العاصفة فى البحر ، فى البادية والأسود [٧] حوله ، فتهدأ العاصفة بدعائه وتأنس الأسود بلمساته . . وكثرت حوادث كراماته ، وهنا دعا « فى ليلة ظلماء ، فيها مطر شديد . . فخلا المطاف فدخلت الطواف . . . » دعا فى البيت الحرام ، والبيت خال « اللهم اعصمنى . . اللهم اعصمنى » وسمع هاتفاً يقول « يا ابن أدهم : أنت تسألنى العصمة ، وكل الناس يسألونى العصمة ، فإذا عصمتكم فمن أرحم » [٨] .

---

(١) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ١٧ ، ١٨ .
(٢) أبو طالب المكى : قوت القلوب ج ١ ص ٥٠٨ وأبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٣ .
(٣) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ١٣ .
(٤) نفس المصدر : ج ٧ ص ٨٦ و ص ٢٢ .
(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ١٩٦ .
(٦) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢ .
(٧) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٠ .
(٨) القشيرى : الرسالة ج ١ ص ٢٣٢ .

٤ – المحبة :

أنس إبراهيم بن أدهم بالله ، ولم يعد الحجاب ولا الغطاء ، لقد زال الأول ورفع الثانى . . . فبدأ يتكلم عن الحب وإبراهيم بن أدهم « أحد المحبين » فيما يقول أبو طالب المكى . ونقول مرة ثانية به كان أحد المشتاقين . . وكانت له أماكن من المحبة رفيعة ، ومكاشفات فى القرب علية [١] . « ليس من أعلام الحب أن تبغض حبيبك [٢] . ويقرر أن الجنة لا تنال إلا بالطاعة وأن مرضاة الله لا تنال إلا بالمعصية والولاية لا تنال إلا بالمحبة [٣] ويضع مرة ثانية مرتبات الحياة الروحية للناس « إن الله تعالى قد أعد المغفرة للأواين ، وأعد الرحمة للتوابين ، وأعد الجنة للخائفين ، وأعد الجوار للمطيعين ، وأعد رؤيته للمشتاقين » وهنا يتكلم أيضا عن الرؤية « وقد ورث أهل المحبة من محبوبهم « النظر بنور الله » . بل بدأت المفاجأة . إنه يريد تسكين قلبه برؤية الله « يا رب إن كنت أعطيت أحدا من المحبين لك ما تسكن به قلوبهم ، قبل لقائك فاعطنى ذلك . فلقد أضر بى القلق » فرأى فى المنام أن الله أوقفه بين يديه . . وقال : يا إبراهيم أما استحيت منى أن تسألنى ما يسكن به قلبك قبل لقائى . وهل تسكن الشقاق قبل لقاء حبيبه ، أم هل يستروح المحب إلى غير مشوقه . قلت يا رب تهت فى حبك ، فلم أدر ما أقول . . فاغفر وعلمنى ما أقول . فقال قل « اللهم ارضنى بقضائك . وصبرنى على بلائك ، وأوزعنى شكر نعمائك » .

ولقد ورث إبراهيم بن أدهم تقاليد نظرية « المحبة البصرية » وعرف مدرسة رابعة العدوية . . وها هو يسير فى نفس طريق رابعة فيرى أن غاية العابدين من الله لا سكنى الجنة ، وإنما ألا يعرض بوجهه الكريم عنه . . بل يقول صراحة « اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزيد عندى جناح بعوضة . إذا أنت آنستنى بذكرك أو رزقتنى حبك ، وسهلت على طاعتك فأعط الجنة لمن شئت [٤] ويقول مرة ثانية « اللهم إنك تعلم أن الجنة لا تزيد عندى عن جناح بعوضة فما دونها . إذا أنت وهبت لى حبك ، وآنستنى بمذاكرتك ، وفرغنى للتفكير فى عظمتك [٥] . بل إنه يذكر أن شرط الولاية ألا ترغب فى شىء من الدنيا والآخرة [٦] وتفريغ النفس لله ، ويفسر الآية « فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم

---

(١) أبو طالب : قوت القلوب ج ٢ ص ١١٥ ، ١٢١ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٢٤ .
(٣) نفس المصدر : ج ٨ ص ٢٥ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٤ – ٣٥ .
(٥) نفس المصدر : ج ٨ ص ٣٦ .
(٦) القشيرى : الرسالة ج ٢ ص ٥٢١ ، ٥٢٢ .

سابق بالخيرات «أما ظالم نفسه فهو مضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الأمل مضطجع على باب العقوبة . . . وأما المقتصد فمضروب بسوط الندامة مقتول بسيف الحسرة مضطجع على باب العفو . . أما السابق فمضروب بسوط المحبة مقتول بسيف الشوق ، مضطجع على باب الكرامة (١) . هذا المحب هو ملك أو كالملك ، خادم الله . . إنه فى مقام غريب . . إذا خلوت بأنسيك فشق قميصك (٢) وهذا مقام سبق به إبراهيم بن أدهم . . الصوفية المتأخرين . . مقام خلع العذار .

مواقف المحب : . . . .

وحين شق القميص ، بدأت السياحة . . بعيداً عن الناس . . . على قمم الجبال ، وفى بطون الأودية . . . إنه يخاف الفوت ، إنه يتطلب الحبيب ، إنه انتقل من درجة أى «من مقام» إلى مقام حتى انتهى إلى هذا «المقام» . . إنه يريد أن يسمع الصوت الإلهى . . . كما استمع إليه محمد وموسى . . . فسمع قائلا يغنى بجواره

كـل شىء لك مغفور سوى الإعراض عنى
قـد وهبنا منك مـافا ت . . بقى ما فات منى

كان هنا فى مقام الحضرة ، فاضطرب وغشى عليه ، كما صعق موسى . . فلم يفق يوما وليلة . . ثم سمعت النداء من الجبل . . يا إبراهيم «كن عبداً» . . فكنت عبداً فاسترحت» أى ـ كما يسترح صاحب القوى – لا يمتلك إلا واحدا فتكون له عبداً حراً مما سواه ، ولا تملك شيئاً ، فإن الأشياء فى خزانة مليكها ، فلا تتملكها فتحجبك عن مالك ، وتأسرك بمقدار ما ملكتها » (٣) هذه هى الحرية الكبرى عند الزاهد الصوفى ، ألا تملك شىء ، ألا تكون عبداً لشىء فى الدنيا ، داخلا فى المشيئة المطلقة ، فى الأمر المطلق ، فى القدرة المطلقة (٤) .

وأخيرا نرى إبراهيم بن أدهم قد حقق آراءه التى اتخذها فى أول حياته – والتى وضعها على لسان الخضر «إن الزاهدين فى الدنيا – قد اتخذوا الرضا عن الله لباساً ، وحبه دثارا ، والأثرة له شعارا» (٥) والتى ذكرها لشيخه أسلم بن يزيد الجهنى الزاهد الإسكندرانى ، فكانت حياته بين الرضا والإيثار والحب ، وكان الحب تاجها .

---

(١) القشيرى : الرسالة ج ٨ ص ٣٨ .
(٢) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦ .
(٣) أبو طالب المكى : قوت ج ٢ ص ١١٥ – ١١٦ .
(٤) أبو نعيم : حلية ج ٨ ص ٣٦ .
(٥) السلمى : طبقات ص ٣٤ .

٥-شيعية إبراهيم بن أدهم

ذهب الخوانساری من الأقدمين والدكتور كامل الشيبي من المحدثين إلى أن إبراهيم بن أدهم كان شيعيا. وتتضح شيعيته من كونه من قبيلة عجل. وكانت هذه القبيلة إحدى مراكز التشيع الغالي، علاوة على أن إبراهيم بن أدهم وصف بمعرفة الاسم الأعظم «وأن فكرة الاسم الأعظم إنما ظهرت أول ما ظهرت على يد شيعي غال من قبيلة عجل وهو المغيرة بن سعيد.. ثم إن الخوانساری يذكر أن إبراهيم بن أدهم قد خدم الباقر وتتلمذ على جعفر الصادق[1] أما عن خدمته للباقر فيقول: وذكر صاحب مجالس المؤمنين أنه (أی إبراهيم بن أدهم) انتهى فی أيام سياحته إلى خدمة مولانا الباقر بمكة المشرفة، وأخذ عن بركات أنفاسه الشريفة ما أخذ، ويؤيده أيضا.. أن إبراهيم هذا يروى عن جماعة كبيرة منهم محمد بن على الباقر وسليمان الأعمش، وفی بعض مصنفات الأصحاب أنه سمع من سفيان الثوری وسليمان الأعمش ومالك بن دينار ومن فی طبقتهم من النساك».. ويذكر الخوانساری أيضا أن إبراهيم بن أدهم قدم الكوفة على عهد المنصور وقدمها جعفر الصادق أيضا.. وخرج جعفر يريد الرجوع إلى المدينة، فشيعه العلماء وأهل الفضل من الكوفة، وكان ممن شيعه سفيان الثوری وابن أدهم، فتقدم المشيعون له، فإذا هم بأسد على الطريق، فقال لهم إبراهيم: قفوا.. حتى يأتی جعفر، فننتظر ما يصنع.. فجاء، فذكروا له الأسد، فأقبل حتى دنا منه، وأخذ بأذنه، حتى نحاه عن الطريق، ثم أقبل عليهم فقال: أما أن الناس لو أطاعوا الله حق طاعته، لحملوا عليه أثقالهم. ثم يذكر الخوانساری أنه أدرك زمن سيدنا السجاد عليه السلام[2].. كما أن إبراهيم بن أدهم دخل فی السلاسل الصوت ذات الصبغة الشيعية: ومن أهمها الطريقة الكميلية نسبة إلى كميل بن زياد والطريقة الأدهمية. كل هذا دعا العلامة العراقی الممتاز الدكتور كامل الشيبي إلى وصل إبراهيم بن أدهم بالشيعة، وعرض حياته وفكره كمظهر للصلة بين التصوف والتشيع ولا شك أن زهاد الإسلام وصوفيتهم تأثروا جميعا خطى على بن أبی طالب فی زهده وفی حياته الروحية. وكان بينهم وبينه وشائج روحية خطيرة. ولا شك أيضا أن الزهاد فی عصر الباقر لجأوا إليه وإلى ابنه وبخاصة أن الباقر والصادق كانا من محدثی الإسلام الكبار، وكان هؤلاء الزهاد محدثين أولا وبالذات.. كل هذا كان يدعو إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوری والفضيل بن عياض وغيرهم الاتصال بأئمة أهل البيت أو خدمتهم إن استطاعوا إلى ذلك سبيلا ولكن ليس معنى هذا إطلاقاً أنهم تشيعوا- أی بمعنى موالاة الإمام،

---

(١) الخوانساری: روضات ص ٣٠.

(٢) الدكتور الشيبي: صفة ج ٢ ص ١٣٣ - ١٢٤.

والدعوة له ، والجهاد فى سبيله . لم يكن هذا غاية الزهاد ، كان غاية الزهاد ، الخروج من الدنيا كلية ، وهجران آمالهم فيها ، من أهالى البشر جميعا . ولم يخوضوا فى أمر الفريقين ، بل بكى إبراهيم ابن أدهم مرة حين سأله سائل عن رأيه فى على ومعاوية وأبى أن يجيب . وأما أنه كان عجليا ، وأنه تأثر بالتشييع الغالى عن هذا الطريق ، فليس هناك ما يثبت أبدا أنه فعل هذا . وكان هناك أيضا عدد من العجليين الزهاد–كمورق العجلى–ولم يكن شيعيًّا . أما كون وصفه إبراهيم بن أدهم بمعرفة الاسم الأعظم ، وأن أول من عرف هذا الاسم كان عجليا شيعيا غاليا ، فلا ينهض أيضا دليلا على كونه شيعيا . كان الزهاد والصوفية يتجهون نحو هذه الأفكار الغامضة ويعرفونها ويتدارسونها . وأخيرا–لا نستطيع أن ننكر الصلة بين التشيع والتصوف إجمالا . وأن الآراء والأفكار لتسرى . ولكن هذا شىء ، وكونه شيعيا بالمعنى المتعارف . ولقد انتهى الخوانسارى إلى هذا فقال عن إبراهيم بن أدهم « هذا وقد علم بذلك كله أنه أدرك صحبة ثلاثة من أئمة أهل البيت . وإن لم يكن ذلك بمجد للمرء إلا بعد إتيان الله من أبواب محبتهم بقلب سليم ، أو الأخذ معهم فى طريقتى الإطاعة والتسليم »[١].

٦ – تلامذة إبراهيم بن أدهم :

كانت مدرسة إبراهيم بن أدهم مدرسة كبيرة ، كان الكثير منهم من أقرانه كأبى إسحق الفزارى وعلى بن بكار ومخلد بن الحسين وأبو يوسف الغسولى . ثم اتصل به الصوفى الخراسانى الكبير شقيق بن إبراهيم البلخى ، ويبدو أن اتصاله به إنما كان فى مكة ، وقد اعترف له بالولاية وتتلمذ عليه . وسنفرد لشقيق فصلا طويلا فى الجزء التالى لهذا الجزء من سلسلتنا « نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام » ولكننا نود أن نتكلم هنا عن التلاميذ الصغار لإبراهيم بن أدهم .

أما أول هؤلاء : فهو إبراهيم بن بشار : الخراسانى الزاهد . وقد ذكره الذهبى فقال : صدوق ما تكلم فيه أحد– روى عن إبراهيم بن أدهم وحماد بن زيد[٢] كما ذكره أيضا صاحب تاريخ « بغداد » . فقال : أبو إسحق الخراسانى الصوفى ، خادم إبراهيم بن أدهم ، ويذكر أنه « قدم بغداد وحدث بها »[٣] ويذكر أبو نعيم « إبراهيم بن بشار الصوفى الخراسانى خادم إبراهيم بن أدهم »[٤] .

---

(١) الخوانسارى : روضات ص ٣٠ .

(٢) الذهبى : ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ٧٥ .

(٤) أبو نعيم : حلية ج ٧ ص ٣٧ .

ونلاحظ أن كلمة «صوفى» أطلقت على خادم إبراهيم بن أدهم ، ولم نجد نصاً واحداً من النصوص القديمة يطلق على إبراهيم بن أدهم هذا اللقب ، نرى فقط أن بعض الصوفية أتوا إليه ، وسألوه عن أمراض القلوب . ولكن نرى أن كلمة صوفى أضيفت إلى خادمه وتلميذه كما نلاحظ ثانيا أن إبراهيم بن بشار كان محدثا ثقة ، وهذا يدل على ميزة مدارس الزهد الأولى أنهم كانوا أولا وبالذات محدثين . وقد صحب إبراهيم بن بشار شيخه فى تجواله وترحاله وسياحاته ، وأخذ عنه الكثير ، وترك لنا أخباره .

أما التلميذ الثانى من تلامذة إبراهيم بن أدهم فهو أبو إسحق إبراهيم الهروى المعروف بستنبه . وقد صحب إبراهيم بن أدهم ، ثم عاصر أبا يزيد البسطامى .

وقد طور ابراهيم الهروى مذهب أستاذه . . فكان هو وشقيق من أوائل من تكلموا فى التوكل . ويذكر أبو نعيم أن أهل هراة كانوا «يعظمونه» فحج متجرداً – ودعا الله فى تلك الحجة : اللهم اقطع رزقى عن أموال أهل هراة وزهدهم فى . «فكانت الأيام تمضى ولا يطعم فيها شيئا . فإذا مر بسوق هراة . قال الناس : هذا الفاعل ينفق فى كل يوم وليلة كذا وكذا درهما»[1] أى أنه لم يعد فى حاجة إلى أموالهم . . . وتكلم إبراهيم الهروى عن رياء النفس وكيف أنه بقى بالبادية أياما وأياما . لا يأكل ولا يشرب ، ولا يشتهى شيئا . . فقال «عارضتنى نفسى أن لى مع الله رتبة» فقابل زاهدا زمنا مطروحا فى البادية «يا إبراهيم . ترائى الله فى شرب» فنظر إبراهيم فرأى شخصا فقال له «قد كان ذلك» فقال الرجل الغريب «تدرى كم لى ههنا لم أكل ولم أشرب ، ولم أشته شيئا ، وأنا زمن مطروح ؟ قلت الله أعلم . قال : ثمانين يوما وأنا أستحى من الله أن يتولى خاطرى ، ولو أقسمت على الله أن يجعل هذ الشجر ذهبا لجعله ، فكانت بركة رؤيته تنبيها لى ، ورجوعا إلى حالتى الأولى» .

وفسر آراء أستاذه فى الدعاء ، ونوع الدعاء المستجاب فقال : من أراد ألا يحجب دعاؤه من السماء ، فليتعاهد من نفسه خمسة أشياء : أولا : أن يكون أكله غلبه ، ألا يأكل إلا ما لابد منه ، ولباس عليه لا يلبس إلا ما لابد منه ونومه عليه ، لا ينام إلا لابد منه . وكلامه عليه : لا يتكلم إلى لا ما لابد منه . والخامس أن يكون متضرعاً ، حافظاً لإرادته دائما ، حافظا لأعضائه دائما ونتساءل نحن هل هذه البدايات هى «بد العارف» التى ستظهر فى أجيال التصوف من بعده .

أما طريق الجنة عنده فهو على ثلاثة أشياء : أولها . سكون القلب بموعود الله . والثانى : الرضاء بقضاء الله . والثالث . إخلاص العمل فى جميع النوافل .

ثم وضع درجات سبع ، كما وضع استاذه من قبل درجات ست : يقول : من أراد أن يبلغ

---

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٤٨ .

الشرف كل الشرف ، فليخسر سبعا على سبع ، فإن الصالحين اختاروها ، حتى بلغوا أسنام الخير :

أولها : أن يختار الفقر على الغنى والجوع على الشبع ، والدون على المرتفع ، والذل على العز والتواضع على الكبر ، والحزن على الفرح والموت على الحياة . . ثم هناك ثلاثة لابد أن يصيبها السالك حتى ينال الشرف فى الدنيا والآخرة : أولها : فتح القلب – فيكون مأوى الذكر والمناجاة – والثانى : غنمه البر ، فكل بر يرزقه الله ، يراه أنه غنيمة له . فيتقبله بالمنة ويحفظه بالخوف ويتممه بالخشية ، ويسلمه بالإخلاص ، ويحفظه بالصبر . والثالث : يجد الظفر على عدوه ، ليستقيم على طاعة الله ، حتى يرزقه الظفر على عدوه »[1] وكأننا فى كل هذا بإبراهيم بن أدهم يتكلم .

« ثم كان هناك من تلامذته الكثيرون من عباد العواصم والثغور » . . كما قلنا – مخلد بن الحسن وعلى بن بكار وغيرهما . أثر فيهم إبراهيم بن أدهم أكبر تأثير . . واتخذوه مثلا أعلى لهم ، فخرجوا يتلمسون الرزق كما تلمس ، ويسيحون كما ساح . . كان إبراهيم بن أدهم أسطورة حتى فى زمانه . . وقد أدى هذا وخلال الأجيال المتعاقبة إلى ابتداع أسطورة إبراهيم بن أدهم .

٧ – إبراهيم بن أدهم الأسطورة :

أصبح إبراهيم بن أدهم قصة رومانتيكية فى الأدب الإسلامى . إن هذا السلطان الخراسانى الذى ساح وهام بين الجبال والوهاد والأودية فى صورة بوذا ، وقد تخلى عن حجاب القصر ، ومر بين حجاب النفس ليصل إلى المحبة الإلهية غارقا فيها ، كما غرقت أستاذته رابعة . لقد أصبح هذا السلطان سلطان العارفين واتبعه حيا وميتا الدراويش فى رقصاتهم . . والسائحون فى سياحاتهم . . والفقراء فى خرقهم . لقد ترك بستان قصره . وعاش فى بستان الله ، وكان هذا البستان الأخير عنده بستان السلاطين الحقيقى . وأصبح السلطان إبراهيم أسطورة التصوف لدى الأتراك والهنود والملايو وجاوه وحضر موت . وحقا لقد اكتشفت مخطوطات متعددة عن سيرة « السلطان إبراهيم بن أدهم فى اللغات التركية والهندستانية والملابوية .

* * *

(١) أبو نعيم : الحلية ج ١٠ ص ٤٣ ، ٤٤٠ .

وبعد : فقد تجاوزنا الصفحات المقررة لهذا الكتاب . ولهذا فإننا سنتوقف عند إبراهيم بن أدهم لكى نتابع الحياة الروحية فى الإسلام فى الجزء الرابع من سلسلتنا عن نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام فنكمل بحث هذه الحياة لدى مدرسة خراسان والمدارس الأخرى التى لم نتناولها فى هذا الجزء ، وهى مدارس الجزيرة العربية ومدرسة مصر ثم مدارس المغرب — وذلك فى القرنين الأول والثانى الهجريين . ثم نتابع حركة التصوف فى القرنين الثالث والرابع الهجريين .

والله ولى التوفيق